أرض النـــجوم

رواية خيالية

سندس خليفة

تابعني على قنواتي على يوتيوب" اقرا خير"، "اخدم خير"، "سكينة وسلام داخلي "

sondesskhalifa@gmail.com

كتب أخرى للمؤلفة

Et toi, qu'est-ce que tu sais faire ? 2013

Écoutez vos émotions. 2015

Maman je n'aime pas l'école, 2016

Trois Clés pour l'éducation au 21ème siècle, créativité,

intelligence émotionnelle et alimentation saine, 2020

الطريق إلى نفسي Nous sommes comme les vagues, 2022

Histoires d'anges, 2023

Cultivez la joie 2023, بذور السعادة والسلام

شفاء ذاتي، 2024

Loupo: السمكة الشجاعة2024

حلمي 2025

ISBN 978-9909-00-398-5

كل الحقوق محفوظة للمؤلفة

Magic Print 2025

اهداء الى كل الأطفال، كل الشباب، المكبلين بنظام النجوم

أحيانًا، يحتاج الناس إلى قراءة رواية خيالية، كي يستعيدوا البصيرة، ويروا بوضوح ما كان أمام أعينهم طوال الوقت.

الفصل الأول

مجتمع الأنا_نية

أرضٌ بـلا ضـوء

في أقصى زوايا الكوكب، وُجدت أرضٌ مظلمة تُدعى أرض النجوم.

لم يكن هناك نور ولم تكن السماء تُرى في أرض النجوم لأن أحدًا لم يرفع رأسه منذ زمن.

في هذه البلاد مباني كبيرة وناطحات سحاب لا يعلم السكان من يعيش فيها او ما يحدث فيها بالضبط. يقال انهم نجوم و لكن لا أحد يراهم, يقولون انهم مزيج من البشر و التكنولوجيا، لهم أصابع إلكترونية و شرائح رقمية في العينين، يتنقلون في سيارات طائرة و لا ينزلون الى الشوارع ابدا.

الشوارع مكتظة دائمًا، تتراكم فيها الفضلات و الرائحة الكريهة منتشرة في كل مكان. و لكن السكان لا يحسون بذلك، يرتدون دائما سماعات تصدر موسيقى مخدرة، تتخللها برامج مضحكة.

ترى الناس يضحكون و هم يمشون بين الفضلات، و أحيانا تراهم غاضبين و يتمتمون بكلام غير مفهوم، فالبرامج المسموعة تراوح بين الضحك و الغضب بشكل منتظم. كل هذا يخضع لبرمجة دقيقة تتم في

أعلى ناطحات سحاب، يسكنها القادة النجوم.

جفت الأرض ولم يعد هناك اشجار، ماتت الأسماك من جراء المواد الكيميائية المتراكمة، ولكن القادة النجوم يجدون دائمًا البدائل...يوزعون اكياسا بلاستيكية تحتوي طعاما كيميائيا. هذا الطعام بدون طعم، ولكن يتمكن الناس من ابتلاعه بمفعول الموسيقى المخدرة والضحك المستمر.

يعيش الناس كما تُبرمج الآلات. كل شيء يخضع لقانون دقيق، يجب ارتداء السماعات بشكل متواصل، حتى وقت النوم، و يجب النظر الى الشاشات باستمرار. كل شيء محكوم بالنجوم في أرض النجوم.

كل رجل، كل امرأة، كل طفل، يرتدي الزي ذاته: بذلة رمادية ضيّقة، خالية من الزينة، لا تُظهر فردًا من آخر. على صدورهم، تلمع نجوم صغيرة؛ بعضها ذهبية، بعضها فضية، وأخرى بالكاد تُرى. لم تكن للزينة، بل كانت لقياس القيمة الاجتماعية.

كل صباح، يستيقظ الجميع على رنين موحّد يصدر من هواتفهم المحمولة. هذه الأجهزة ليست وسيلة اتصال ما بينهم بل وسيلة اتصال بين كل شخص و القيادة النجمية.

هذه الشاشة كانت الحَكَم الأعلى الذي يخبر كل شخص بقيمته و بمكانته في المجتمع، من خلال عدد النجوم المتحصل عليها. كل صباح، يظهر على الشاشة عدد النجوم التي كسبها الشخص في اليوم السابق. يُقال له مثلا: "لقد نلتَ ثلاث نجوم إضافية. عملك بالأمس كان جيدا." أو: "نجمة واحدة فقط... عليك أن تجتهد أكثر."

النجوم ليست رمزية فحسب؛ هي العملة الوحيدة.

من لا يملك عددًا كافيًا من النجوم، لا يستطيع شراء حذاء، ولا حتى كوب ماء نقي. لا يحق له دخول بعض المرافق، ولا يستحق "يوم راحة". ومن يملك أكثر، يُكافأ برحلات قصيرة إلى مناطق نادرة فيها الهواء النظيف، أو يسمح له بتذوّق قطعة حلوى اصطناعية أو الاستحمام بماء دافئ. لكن لا أحد يسأل: من وضع هذه القوانين؟

من قرّر أن النجوم هي المعيار؟ ما هي النجوم بالضبط؟ ومن يُعطيها؟

في كل شارع، شاشات ضخمة تُعيد بثّ نفس الرسائل: «كن مواطنًا نجمًا. الطاعة طريقك نحو المجد."

مركز التنمية النجمية الأولى

في أرض النجوم، لا يُسمح للأطفال بالبقاء مع ذويهم أكثر من عام واحد.

عند تمام الشهر الثاني عشر من العمر، يُؤخذ الطفل إلى ما يُعرف بـ"مركز التنمية النجمية الأولى"، وهو مجمع ضخم ألوانه داكنة، له جدران بلا نوافذ، ورائحة معقّمة.

هناك، لا يُسمّى الطفل باسمه، بل يُعطى رمزًا، هذا الرمز مكوّن من ثلاثة أحرف ورقم

لا أحد يُنادى بإسمه او يا صغيري، فقط الرموز.

يبدأ البرنامج منذ اللحظة الأولى.

يتعلّم الطفل كيف يبتسم ليرضي المدربين و التعليمات الظاهرة على الشاشة. وكيف يصفّق عند الطلب. يقع تدريبه، يمدّ يده ليأخذ نجمة وهمية تُلقى أمامه من آلة صغيرة تُسمّى "موزّع التحفيز".

بواسطة "دليل التدريب التربوي" و "التحفيز الإيجابي"، يُدَرّب الأطفال على الطاعة العمياء، وعلى المنافسة المحمومة، دون أن يعلموا لماذا.

يُشجَّع الطفل على جمع أكبر عدد من النجوم في اليوم، ويُقال له إن هذا دليل على أنه ذكي وناجح ومحبوب.

وإن فشل، يُهمَل و يُترك جانبًا.

يقول له المدرب: "حاول غدًا أكثر، وإلا لن تذهب في نهاية الأسبوع إلى غرفة الألعاب الكبرى حيث المثلجات و الحلوى الاصطناعية."

في كل ركن من المركز، كاميرات تسجّل كل نظرة و كل إشارة.

ومن يحصل على أعلى عدد من النجوم، يُرفع اسمه، أو رمزه، على لوحة الشرف الإلكترونية. تعرض صورته للحظة، ويصفّق له الجميع. لكن لا أحد يفرح حقًا.

في المساء، يعود الطفل إلى منزله، يركض نحو والدَته، ويُريها شاشة هاتفه: "انظري! اليوم حصلتُ على 6 نجمات كاملة!". النجوم هي ببساطة محور الحياة.

الاباء كلهم في المعسكرات، لا يرون الأطفال الا في يوم الزيارة، وتكون الموسيقى دائما صاخبة بحيث لا يستطيع احد ان يتكلم و يتواصل فعليا مع الآخر.

علاقة الأم بطفلها في أرض النجوم قوية جدا، خاصة جدا. بما انها لا تعمل (ليس لديها الحق في العمل)، و تمضي كامل اليوم بمفردها بينما طفلها يقضي يومه في مركز التنمية النجمية، فإنها تشعر غالبا بالوحدة، بعدم الجدوى، بالاكتئاب، تضع في هذا الطفل كل أملها في الحياة، و هكذا تضغط عليه دون وعي حتى يحقق النجاح و احساس الفخر الاجتماعي الذي تفتقده.

كانت هذه استراتيجية مدروسة بالكامل من القادة النجوم للسيطرة الكلية على الأطفال، و الأمهات ايضا، فالكل منخرط في جمع النجوم و تحقيق المجد عن طريق ذلك. وكل ما زادت النجمات اللامعة على صدر الشخص كلما تعزز احساسه بالفخر و بالانتماء لأرض النجوم. تبتسم الام كلما لمعت نجمة إضافية على صدر طفلها، تربّت على رأسه... لكن داخلها حزن دفين غير مفهوم.

هي تعرف، في أعماقها، أن نجمته هذه لا تعني شيئًا حقيقيًا.

فطفلها لا يعرف القراءة، فقط يحفظ مقاطع صوتية يرددها ليتحصل على نجمة، ولا يطرح أسئلة. لا يندهش من شيء، يقضي وقته أمام

الشاشة حتى ينام من التعب. لا يعرف الحيوانات و لا الأشجار فالأرض جفت منذ زمن و لم تعد هناك حياة.

و لكن ليلى، ام عرفان كانت تحب الاشجار و تتذكر الهواء النقي الذي كان في هذه الأرض عندما كانت طفلة. كانت تطيل النظر في السماء تتذكر المناظر الطبيعية الخلابة و الحياة التي كانت في ارضها، و لا تحب الشاشات كثيرا.

ليلى لم تحب ابدا هذا النظام النجمي، تحس ان طفلها أصبح وحدة إنتاج نجوم صغيرة، باكرًا جدًا. لا تعجبها الصراعات التي تبث في الأطفال منذ الصغر.

كان جمع النجوم هو الهدف الوحيد من الحياة، و يدرب الأطفال على هذا منذ السنوات الأولى، يدربون على الغيرة، ثم الغضب، ثم العدوان. من يحصل على اقل عدد نجمات يتعرض للتنمر، للاستهزاء و احيانا يُضرب. من يخطئ في ترتيب النجوم، يُسخر منه. ومن يربح، يتعالى، يضحك بسخرية، ويجلس على كرسي يسمى كرسي الفائز.

و هكذا يُزرع التمييز، ويُروَّج للأنانية، ويُعلَّم الطفل أن من لا يربح

لا يستحق شيئًا.

وفي نهاية الأسبوع، تُرسل التقارير للأمهات، مكتوبة بلغة تقنية جافة لا تفهمها الأمهات.

هذا الامر مدروس بدقة، فاللغة التقنية المستعملة في نظام النجوم تجعل الإنسان يحس دائمًا انه دون المستوى، و هكذا يضطر ان يصدق كل ما يقال له، يحس انه جاهل بينما القادة النجوم هم الخبراء.

التقييـــم المستمـــر

في الطابق العلوي من برج النجوم، انعقد اجتماع مغلق. كان القائد العام في صدر القاعة، هو انسان متحول جينيا و يحمل شريحة رقمية في دماغه، مثل كل القادة النجوم. تحيط به شاشات مضيئة تُظهر إحصاءات دقيقة، وجداول معقدة مليئة بالألوان، والرموز، والخانات المتداخلة.

رفع القائد نظره وقال بنبرة هادئة و صارمة في نفس الوقت:

حان وقت مراجعة شبكة التقييم. نريد نظام تقييم و مكافأة و سباق من اجل النتائج بصفة دورية مستمرة, نريد نظاما يُكافئ التفاصيل الدقيقة في كل نجمة. نريد أن يشعر الطفل أنه دائمًا تحت الضغط و انه يحتاج إلى كل نجمة، في كل خانة.

أومأ أحد المستشارين وأضاف:

-نعم سيدي، لقد أضفنا 27 خانة جديدة في التقييم.

ابتسم القائد العام:

-ممتاز، فليغرقوا في التفاصيل. حين يُشغل العقل بالبحث عن النجوم لا يستطيع أن يُفكر.

ثم اقترب مستشار آخر، بدا عليه بعض التردد، وقال:

-هناك تقرير وصلنا من المنطقة ب سيدي، يبدو أن بعض المعلمين بدأوا يعتمدون فكرة المشروع والأنشطة التشاركية عوض التلقين و التقييم المستمر. والأطفال يبدون اندماجًا كبيرًا.

نظر اليه القائد، ضرب الطاولة بيده بقوة:

-ممنوع ! اوقفوا هذا الأمر حالا!! لا نريدهم أن يذوقوا متعة الإنجاز الذاتي! هذا خطر على النظام بأكمله. هل تدركون ما يعنيه أن يشعر الطفل بالرضا الداخلي دون مكافأة خارجية؟ إنها بداية التحرر!

أخذ نفسًا عميقًا ثم تابع:

-يجب أن نجعلهم يربطون قيمتهم و احاسيسهم بالنجوم، لا غير. لا يشعرون بالإنجاز و المتعة إلا إذا حصلوا على "شهادة تقييم"، "شهادة شكر"، "ميدالية". كل شيء يجب أن يمر من خلالنا. نحن من يُحدد النجاح والفشل. نحن الحقيقة.

افهموا يا سادة، كلما زاد عدد خانات التقييم، زادت التبعية.

ثم قال بصوت حاسم:

-أريد نظامًا يجعل الطفل يتوتر، أريده أن يقلق.

نريدهم مشغولين، مرهقين، يسعون دائمًا للمزيد من النجوم، لا يشعرون أبدًا بالاكتفاء.

أومأ الجميع قائلين نعم، نعم. و انتهى الاجتماع.

الفصل الثاني

الرجال في أرض النجوم

الحـــياة في المعســـكر

كل يوم عند الفجر، يُفتح الباب الحديدي الكبير في معسكرات الرجال وتبدأ الصافرة.

آلاف الرجال ينهضون افواجا افواجا في صمت.

أجسادهم نحيلة، عيونهم متعبة، خطواتهم آلية.

كلّ واحد منهم يحمل علبة بلاستيكية شفافة فيها حبّة صغيرة تُسمى حبة التوازن الغذائي والعقلي.

في الحقيقة، الجميع يعلم أنها تحتوي على بروتينات مركّزة وأيضًا مادة كيميائية تُخدّر، تقتل الحنين إلى العائلة وتُبَطّئ التفكير، وتُطفئ شرارة التمرّد. و لكنهم مضطرون لابتلاع هذه الحبوب دون نقاش.

"الرجال هنا لا يفكرون، الرجال هنا يعملون." هذه العبارة مكتوبة على جدار كل ممر لتحفيز العمال. كل الرجال عمال في أرض النجوم، و ليس للنساء للحق في العمل. وظيفة النساء هي الإنجاب و العناية بالأطفال عناية مكثفة.

كل رجل يعمل 20 ساعة في اليوم و ينام 4 ساعات فقط. ينام الرجال على أسرّة معدنية متلاصقة ولا يُسمح بالحديث عن العائلة.

لكن هناك يوم واحد في الشهر يُدعى "يوم الزيارة".

في هذا اليوم، تدخل النساء برفقة الأطفال إلى المعسكر. تُقام احتفالية، موسيقى، رقص، وطعام معلب فاخر.

تُمنح كل عائلة خيمة بيضاء صغيرة، داخل ساحة محاطة بالكاميرات، لقضاء اليوم معًا. ثم تنطلق الصافرة في آخر اليوم وتنتهي الفسحة.

في ذلك اليوم، كان مالك ينتظر زوجته وابنه عرفان. جلس على الأرض يمعن النظر في القادمين و يطوي منشفة قديمة.

عندما رآهما احس فرحا شديدا.

قضى اليوم مع عائلته الصغيرة متجنبا لمس زوجته، فذلك ممنوع ايضا، إلا لغرض الانجاب. كانت الموسيقى صارخة في ارجاء الساحة، تتخللها مقاطع مبرمجة للضحك.

و يجب أن يضحك الجميع في هذه الاوقات.

لم يكن عرفان يحب هذه الموسيقى النجمية و لا المقاطع المضحكة،

يريد ان يتحدث بحرية مع ابيه. لكن مالك كان يمنعه من ذلك خوفا عليه من بطش الحراس. قبل أن يغادر، قال عرفان لوالده:

-بابا، لماذا لا ترجع معنا؟

نظر اليه مالك بحزن ثم قال:

-لأني أعمل، هذا قدري.

ردّت امه:

-لكنك تتغير كل شهر أكثر فأكثر. ابنك لم يعد يعرف وجهك، ارجوك لا تأكل الحبة، يقولون انها مخدر.

سمعهم أحد الحراس فاقترب و قال:

-انتهى الوقت. الرجاء النهوض فورًا.

ضمّ مالك ابنه بقوة. ثم نهض دون أن ينطق كلمة واحدة.

في المساء، جلس حزينا على سريره المعدني. ينظر إلى رفاقه من الرجال العمال و يعلم تماما أن نفس الأفكار تجول في اذهانهم.

الأرض قبـــل النجـــوم

لم يستطع مالك ان ينام. جلس يتأمل شاشة الحائط المضيئة، يداه مغطاتان بالغبار، وعيناه متعبتان من ساعات العمل الطويلة. بجانبه، جلس صديقه إياد.

-ما بك؟ الن تنام؟

قال مالك بنبرة خافتة:

. هل تتذكر؟ لم يكن الأمر هكذا دائمًا...

نظر إليه إياد باستغراب:

. ماذا تقصد؟

تنهد مالك.

-اوه...نسيت انك صغير السن. انت لا تعرف كيف كانت الأرض قبل نظام النجوم.

وأكمل بصوت منخفض، وكأنه يخشى أن يسمعه أحد:

. قبل مجيء قادة النجوم، كانت الأرض مختلفة تمامًا. لم تكن هناك شاشات و مراقبة في كل مكان، ولا ذلك السباق المجنون خلف النجوم. كانت الحياة بسيطة و حلوة.

سكت لحظة، ثم تابع وكأنه يسرد حلما قديما: كنا نعيش في بيوت خشبية وسط الطبيعة، نزرع ونحصد ونضحك دون مراقبة. كانت الأشجار حولنا في كل مكان، نستيقظ مع نور الشمس و نعيش في انسجام مع الطبيعة و كل الفصول، الهواء نقي يُنعش القلب و الماء عذب و الحصاد وفير. أطفالنا يكبرون بيننا و يتعلمون اسس ثقافتنا و حضارتنا. لم نكن نحتاج شيئًا، لا مكافآت، ولا نجوم، ولا تقييمات.

قال إياد: و كيف تغيّر كل هذا؟

أجاب مالك :

. بدأ كل شيء بقدوم تلك الكائنات، اناس الكترونيون، ليسوا مثلنا، لا ينتمون إلى الطبيعة، لا يفهمون لغة الحيوانات و الأشجار. عاشوا في ارضنا و خربوها، و حصلت كارثة مناخية، غضبت امنا الأرض ... حرارة شديدة، أمطار حمضية، جفاف رهيب. مات الزرع، لأن

الماء صار نادرًا. قال قادة النجوم انهم سينقذوننا اذا اتبعنا الخطة: تنظيم المجتمع حسب النجوم التي يتحصل عليها كل فرد، توزيع الغذاء، مراقبة السلوك، معسكرات العمل للرجال، مراكز التنمية النجمية للأطفال ...و كل ما تراه الآن.

قال إياد:

. تقصد انه في السابق...لم يكن هناك نجوم ؟ و لا تقييم مستمر؟؟!

. نعم، الآن صارت النجوم هي المعيار الوحيد. من دونها لا يمكنك الأكل، أو انجاب أطفال، أو حتى المشي في الشارع. إنها العملة، والهوية، والقيمة.

كان إياد شابا ذكيا، طموحا و قويا.

نظر إلى مالك وقال:

. هل سنبقى هكذا إلى الأبد؟

اغمض مالك عينيه، يحاول ان ينام:

. لا أحد يعلم.

طقـــوس الرجولـة

مع غروب كل سبت، يُقرَع الجرس الكبير في معسكر الرجال.

في ذلك التوقيت، يتوقف العمل، وتُضاء الساحة الرئيسية بأضواء حمراء خافتة.

يتجمّع جميع الرجال في صفوف دائرية حول منصة مرتفعة تُدعى "منبر الشرف الذكوري".

يُفتح صنبور ضخم من وسط المنصة، ويوزع الحراس أكوابا بلاستيكية فيها مشروب يُدعى "راحة المحارب".

هو سائل غامق اللون، يشبه الكحول، لكن لا رائحة له. الجميع يشرب، دون نقاش. البعض يشرب بسرعة و بتشنج، البعض يشرب بوجه جامد، ثم يبدأ العرض.

يظهر على الشاشة الضخمة شريط دعائي يعرض مشاهد لعائلات تبتسم، لأطفال يأكلون، لنساء في البيوت يكتبن رسائل إلكترونية تقول: "شكراً لك، أيها البطل."

ثم تُذاع كلمات القائد الأعلى، بصوته العميق:

"أنتم الجنود الحقيقيون. بفضلكم تدور عجلة الحضارة. بعرقكم نحيا، وبصبركم نستمر. لا تتراجعوا. لا تسألوا. فقط استمروا."

في تلك اللحظة، تُطلق الابواق موسيقى صاخبة، تشبه موسيقى المعارك، ويبدأ الرجال في التهليل، ورفع الأكواب، وضرب صدورهم.

طقوس الرجولة بدأت.

يقف أحد القادة الوسيطين على المنبر ويصرخ:

-من هو الرجل الحقيقي؟

فيصرخ الجميع بصوت واحد:

-من يعمل ولا يشكو!

-من لا ينام قبل أن يُنجز!

-من يعيش لعائلته... ويموت بصمت!

تتوالى الشعارات، تتكرّر، تدخل في اللاوعي، تُغلف بما يُشبه الفخر... ولكنها في العمق، قيدٌ ذهنيٌ جماعي.

مالك، الجالس في الصف الرابع، يُمسك كوبه بتردد. يشرب القليل...

يشعر بدمه يتدفق بسرعة، يشعر بدفء غريب في جسده. قلبه ينبض بسرعة. لكنه لا يشعر بالسعادة.

ينظر حوله. كل الوجوه تضحك، تصرخ، تتمايل. لكنه يشعر بأنه وحيد، غريب.

في تلك اللحظة، اقترب منه زميله جهاد:

-اشرب فقط ما يكفي ليظنوا أنك معهم... الباقي اسكبه تحت المقعد.

استدار مالك بهدوء:

-هل تشعر انت ايضا أنهم يخدروننا؟

ابتسم جهاد:

-بالطبع. انا فهمت كل شيء منذ أول كأس شربتها.

الفصـل الثالث

الطفــل المختلف

الصـــدمة

كان عرفان مختلفًا منذ البداية.

اسمه "عرفان"، لكن أحدًا لم يكن يناديه به في المدرسة.

في السجلات الإلكترونية، يُعرف باسم "ع ر ف – 27"،وفي الصف، يُعاملونه كحالة خاصة.

منذ كان طفلا، في مركز التنمية النجمية الأولى، لم يكن يستطيع التركيز طويلا على ما يقوله المعلم، يريد ان يفهم كل شيء، يطرح أسئلة كثيرة و لا يُصفّق كالباقين. كان شديد الملاحظة، يتأخر في كتابة الأجوبة المطلوبة، يريد ان يبدي رايه، ويضحك في غير وقت الضحك. كان ينظر طويلاً إلى النافذة المغلقة و لا يحب سباقات جمع النجوم.

كان يقول:

-أنا اريد أن اتحرك، اريد ان اصنع شيئا بيدي، اريد ان ارسم .لماذا يجب أن احفظ هذا المقاطع كي أحصل على نجمة؟ أنا أريد أن أتعلم شيئا افهمه و يكون مفيدا لي و لأمي و لأبي. لا تهمني النجوم.!! أنا

لا اعرف حتى ماذا تعني هذه النجوم و من قرر انها اهم شيء في الحياة.

في البداية، ظنّ المعلمون أنه سيتغير تدريجيًا و ينضم للمجموعة.

ثم أخيرًا، جاء التشخيص القاطع من لجنة التقييم العليا:

عرفان يعاني من اضطراب نقص الانتباه مع فرط الحركة. يُنصح بالعرض الفوري على الأخصائيين السلوكيين.

ارتبكت والدته، الصدمة كانت شديدة، واغرورقت عيناها بالدموع. لكنها كانت تعرف، في أعماقها، أن ابنها ليس مريضًا.

قالت للطبيب و هي توجه له نظرة حادة:

-ابني لا يرفض التعلم، هو فقط يرفض الخضوع لنظام التلقين و التصفيق. وهذا فرق كبير.

لكن في أرض النجوم لا مجال لهذا الكلام. لم يجبها الطبيب، فقط نظر إليها باشمئزاز، لأنها امرأة جاهلة بالنسبة له.

في الاجتماعات التربوية الأسبوعية، كانت الابواق تردّد نفس الجملة: التميّز ليس اختيارًا... بل واجب وطني.

من لا يحصل على النجوم، لا يستحق أن يُذكر اسمه.

وفي الشاشات الموجودة في البيوت والمقاهي ومحطات النقل تظهر برامج تحفيزية على مدار الساعة:

ابنك اليوم.... نجم الغد.

في كل صف، هناك مقعد واحد فقط للفائز... فهل سيكون لابنك؟

وتُظهر الإعلانات صور أطفال يضحكون بجمود، يحملون شهادات مزيّنة بالنجوم، وتحتها تعليق صغير:

"نحن النجوم، نحن المتميزون."

لم يكن عرفان إنسانا سويا في نظرهم، لأنه ليس ممتازا و خاصة لأنه لا يطمح ان يكون ممتازا.

حياته صارت صعبة جدا في هذا المركز. فهو رسميا طفل مختل-ف.

حين يصبح الوعي مرضًا

لم يكن الأمر بسيطًا كما ظنّت والدته في البداية.

قالوا لها: ابنك يحتاج إلى تقييم شامل.

و هذا التقييم كان بداية المتاهة.

على مضض، اصطحبت ابنها إلى "مركز التوازن السلوكي" حتى يجرى له هذا التقييم الشامل. دخلت المبنى الزجاجي البارد بخطى بطيئة و هي تنظر الى الجدران، لاحظت ان المبنى مليء بشعارات مثل:

"إذا كان الطفل مختل-ف، نحن نُعيده إلى الطريق"

"السلوك المنضبط... أساس المواطن النجم"

في الداخل، كان هناك موظف شاب يلبس بدلة رمادية و يجلس أمام شاشة كبيرة. بدأ يسأل عرفان أسئلة متتالية:

كم عدد النجوم التي حصل عليها في الأسبوع الأخير؟

هل يطيع الأوامر فورًا؟

هل يتحدث كثيرًا؟

هل ينظر إلى السماء أثناء الحصة؟

ثم طلب من عرفان أن يُجري "اختبار التركيز"، والذي لم يكن أكثر من مجموعة صور تظهر وتختفي بسرعة، وعليه أن يضغط على زر كلما ظهرت "النجمة الذهبية".

عرفان لم يضغط.

سأله الموظف:

-لماذا لم تضغط؟

أجاب بهدوء:

-لأنني لا احب النجوم.

واصل الموظف إجراءات التقييم ثم جاء الطبيب و هو يهز رأسه مستغربا : "اضطراب إدراكي – انفصال عن الواقع – يحتاج إلى متابعة عميقة".

و بدأت سلسلة التحاليل، تحاليل دم و تصوير دماغ، جلسات سلوكية ثلاث مرات في الأسبوع. اختبارات لا تنتهي كلها تدور حول شيء واحد:

كيف نُعيد هذا الطفل إلى القطيع؟

الأطباء يراقبون سلوكه أمام الشاشة وكل تقرير ينتهي بجملة جاهزة:

"التقدّم بطيء، يُنصح بالاستمرار على خطة التدخل."

وكل هذا كان يكلّف والدته الكثير من النجوم، أدوية، وأجهزة "تحفيز ذهني" باهظة الثمن.

صارت الام متعبة، منهكة تمامًا، جسديا و ذهنيا...لم تعد تتحمل.

ذات مساء، كانت في طريق العودة الى البيت، تُمسك يد عرفان الصغيرة و تمشي مع جارتها:

-لقد سئمت هذه الحياة، ابني ليس آلة تحتاج إلى صيانة، هو المرآة الوحيدة التي تعكس الحقيقة في هذا العالم المريض! ولهذا يريدون كسرها.

اجابتها جارتها ...

- المهم ان يجد مكانا في هذه الأرض. يجب أن يتأقلم مع الوضع حتى يستطيع أن يعيش هنا...ليس لديكم حل آخر.

هذا الكلام لا يعجب ليلى التي لا تحب انصاف الحلول.

في الاثناء، لم يتغيّر شيء في المركز بل ازداد الضغط على عرفان.

زملاؤه بدأوا يتجنّبونه.

المعلمة تنظر إليه بنفور، وتُخفي ابتسامة متكلّفة حين تقول:

-انه مختل-ف. انه متأخر ذهنيا. علينا أن نتحمّل خصوصيته حتى لا يُؤثر على الآخرين.

أما عرفان، فكان يزداد وعيًا.

كلما زادت جلسات العلاج، كلما فهم أكثر أنه ليس مريضا، بل الوحيد الذي ما زال حيا، مازال حرا، مازال قادرا على ان يطرح الأسئلة المزعجة و خاصة السؤال الذي يخاف منه الجميع:

لماذا يجب أن أُجمع النجوم؟

البحر الميت

كانت أرض النجوم تطلّ على شريط ساحلي طويل، يقال ان البحر هنا كان فيروزيًا، رملي الشواطئ، مليئًا بالأسماك والقواقع والحياة، أما اليوم، فهو مجرد كتلة سائلة رمادية تنبعث منها رائحة العفن.

كل صباح، تُلقي الأمواج الهزيلة جثثًا جديدة:

أسماك ميتة، سلاحف بلا حركة، طيور عالقة في خيوط بلاستيكية.

تتكدّس على الرمال .

في أرض النجوم، البحر هو فقط كتلة من المياه تستغل للديكور في الحفلات. كانت الكثير من الحفلات تقام على الشاطئ، بعد تنظيفه بصفة سطحية من اجل استغلاله للحفلة. حينها تجمع جثث السلاحف الميتة و الطيور المختنقة بالتلوث، لتحرق و ترمى بعيدا، حتى يقام الحفل فوق الشاطئ، و تجهز شاشات عملاقة تُعرض عليها برامج جمع النجوم و الاشهارات.

ومع كل إشهار جديد، يرتجّ المكان و تدوي مكبرات الصوت المعلقة في كل مكان: "احصل الآن على 3 نجوم إضافية! شارك الفيديو واحصل على مكافأة!"

حصلت الكارثة البيئية منذ سنوات و لكن لا احد يعلم بالضبط ما الذي حصل. فقط وضعت لافتات في كل الشواطئ تقول :"البحر ليس مناسبا للسباحة".

منظومة النجوم لا تريد أن يهتم الناس بالطبيعة، و خاصة البحر، فهو مصدر خيرات و رزق كبير للناس. و لا يمكن استعباد أناس مصدر رزقهم مجاني و حياتهم بسيطة.

أما عرفان... فكان يأتي كل يوم الى البحر، حافي القدمين، يسير بين جثث الحيوانات، يجلس على الصخور، يُشاهد البحر يلفظ ما تبقى من الحياة. يصوّر الأسماك الميتة، يُسجّل أصوات النوارس المصابة، يلتقط صورًا لأكياس البلاستيك الملتفّة حول أعناق البط.

ثم يعود إلى بيته، يُحمّل الصور على هاتفه ويكتب تعليقات مثل:

"البحر يموت... هل يرى أحدكم ذلك؟"

لكن لا أحد يهتم.

لا أحد يُعلّق على منشوراته، او ربما لا احد يراها، فنظام النجوم هو الذي يتحكم في المنشورات و في كل الشبكة.

أصدقائه في المدرسة منشغلون بالفيديوهات اليومية التي يُرسلها "مركز التحفيز النخبوي": تحدي الرقص السريع: اربح 10 نجوم الآن!

احفظ هذا الجدول و ردده عشر مرات... كن نجمًا حقيقيًا!"

حاول عرفان مرارا و تكرارا أن يقنع صديقه عمير بخطورة ما يحدث للسلحفاة، ارسل اليه صورة سلحفاة مقطوعة الزعانف. و لكن عمير قال له بابتسامة ساخرة:

-لماذا تضيع وقتك؟هذا لن يُعطيك نجومًا يا عرفان، ركّز على ما ينفعك.

أما المعلّمة، فلمّا رأت منشوراته، استدعته وقالت له بنبرة حادة:

-عرفان لا تُضيع وقتك في أشياء لا تُفيد. النجوم تُكافئ الجهد الحقيقي، لا صور الأسماك و السلاحف. هي مجرد حيوانات في نهاية الأمر، نحن نتطور و نحصل على نجوم أكثر فأكثر. هل تريدنا ان نعود للعيش في الكهوف و الغابات مع الحيوانات الوسخة و الطبيعة البدائية؟

و على كل حال لا نحتاج للبحر و لا للسلاحف و أعشاب البحر و لا حتى للأسماك. عندنا طعام كيميائي جاهز في أكياس جميلة توزع مجانيا. ان لم يعجبك طعمه فضع السماعات و استمع للموسيقى النجمية و سوف تبتلعه دون أن تشعر. فلماذا تريد تعقيد الأمور يا عرفان؟ لماذا لا تكون مثل الآخرين؟

بقي عرفان صامتا يحدق في هذه المرأة. يكاد يشك في نفسه...في اليوم التالي عاد إلى الشاطئ. وجلس يفكر.

من المجنون يا ترى؟ من المختل و المتأخر ذهنيا؟ هو...أم هذه المرأة؟.

جمعية السلحفاة الصغيرة

صار عرفان يذهب الى البحر كل يوم.

لم يعد فقط يصور الأسماك الميتة، بل يخطّط لحملات توعية.

بدأ يرسم لوحات تعبيرية ليعلقها على الجدران:

رسم مثلا سلحفاة تبكي من الألم، بطة تسبح في زجاجات مهشّمة ثم رسم طفلا يأكل البلاستيك، لعل هذه الرسومات تجلب انتباه الآخرين. و لكن لا جدوى. الكل في سبات. و مع ذلك عرفان يمضي قدما... اخذ صورة جديدة بهاتفه لسلحفاة ميتة، و نزلها على الشبكة مع إعلان صغير:

"انضمّ إلينا لحماية البحر. الحياة تبدأ من الماء."

وضع الرابط الى الموقع الذي صممه بنفسه، فيه صورة سلحفاة صغيرة وصور لأطفال ينظفون الشاطئ و يحملون لافتات كُتب عليها:

"نحن جمعية السلحفاة الصغيرة "

"لا نأكل البلاستيك!"

"الأسماك ليست نفايات!"

نجحت العملية نوعا ما، فانضمت مجموعة صغيرة من الأطفال والمراهقين، ومعهم بعض الأمهات، الى عرفان. كانوا يعملون في الظل، بلا دعم من أصدقائهم. يجتمعون يوميا في قاعة صغيرة قريبة من البحر، مفروشة بحصائر بسيطة.

من حين لآخر، يخرجون معا، يمشون في الشوارع و يرتدون قمصانًا قطنية كتبوا عليها يدويًا: "أنا نجم حين أحمي الحياة."

علقوا منشورات ، ووزّعوا مطويات على الناس في الشوارع ، رسموا على الأرصفة آثار أقدام أطفال و بجانبها اسماك ميتة، وكتبوا تحتها:

"إذا استمرت خطواتك على هذا الطريق... إلى أين ستصل؟"

لكن ردود الأفعال كانت أغلبها باردة.

اغلب الناس لم يتوقفوا، البعض ابتسم بسخرية، البعض الآخر قال:

–ما هذه الترهات، نحن نتقدم بالنجوم و هؤلاء المتأخرون ذهنيا منشغلون بالأسماك ! ها ها ها."

ذات يوم، كان بعض الأطفال يُشاهدون بثًا مباشرًا لحفل تكريم "أوائل النجوم"، هذه الحفلات و التكريمات تبث كل يوم و الناس تعشقها، تقدسها تقديسا.

عندما لاحظوا وجود عرفان قالوا له بسخرية:

-انت تضيع وقتك، من الأفضل أن تركز مجهودك و تجمع نجوما أكثر للدخول الى المدرسة النموذجية للنجوم.

كان هذا الكلام يقال له للمرة الألف و لكن عرفان لم يتوقف. لأول مرة في حياته شعر أنه يفعل شيئًا ينبع من ذاته، شيئًا يحمل هدفا حقيقيا، هدفا نبيلا.

الفصل الرابع

برمجة التميز و التألق

المهم من يفوز!

أرض النجوم مليئة بمراكز التدريب التي تحمل اسماء كثيرة، مراكز التنمية النجمية، مدرسة النجوم المركزية، مدارس التميز النجمية، الخ.

هذه الأسماء تبدو مختلفة و لكن جوهرها واحد، فكلها تعد الأطفال و الشباب للدخول في معسكرات الرجال، العمل 20 ساعة في اليوم و الطاعة العمياء.

و التحضير النفسي لدخول المعسكرات هام جدا، يجب ان يقتنع الناس ان هذا فخر و مجد كبير، و لذلك فإن القادة النجوم وضعوا استراتيجية نفسية كاملة متكاملة لغسل الادمغة بنظام المكافأة و المكانة الاجتماعية. و من أهم مظاهر هذه الاستراتيجية تمجيد النخبة، تمجيد الفائزين، و ضغط الامتحانات الذي تليه الحفلات و المكافآت بأنواعها...

هذا اليوم كان يوما مهما جدا في مدرسة النجوم المركزية، حيث يلمع البلاط المصقول تحت أقدام التلاميذ، وحيث الشاشات تكرّر بلا توقف:

"الامتياز هو طريقك نحو النور، النجمة طريقك نحو المجد!"

انه يوم الامتحان النهائي: الكل متوتّر و النظرات المشوشة تذهب إلى كل الاتجاهات. الجميع يعرف القاعدة الذهبية في أرض النجوم: من يغشّ، يفوز. و كل الأطفال يريدون النجاح في هذا الامتحان مهما كان الثمن.

جلس عرفان في مقعده، يفتح ورقة الامتحان ببطء. خلفه مباشرة، جلس سليم، أحد "اللامعين"، كما يسميه الأساتذة. لكنه ليس ذكيا فعلًا، بل بارع في الغش دون أن يُكشف. يحمل ساعة إلكترونية مربوطة بالمنصة الرئيسية، تُظهر له الإجابات لحظة بلحظة.

بعد دقائق من بدء الامتحان، التفت سليم و قال:

ـ عرفان، هل تريد ان أعطيك الإجابة عن السؤال الخامس؟

ـ لا، شكرًا. أريد أن أفهم بنفسي.

ضحك سليم بسخرية:

ـ تريد أن تفهم؟ كم انت مغفل. الذكاء هنا هو أن تجمع اكبر عدد من النجوم بأي طريقة!

لم يعره عرفان اهتماما، أكمل بهدوء امتحانه، لكن في نهاية الحصة، حدث ما لم يكن بالحسبان. المراقب، رغم علمه بما يجري، أعلن بفخر :

ـ لقد تحصل سليم على أعلى علامة مرة أخرى! نجمته لهذا الأسبوع ستكون ذهبية!

صفق الجميع، بينما شعر عرفان بانقباض في قلبه. لم يحزن بسبب النتيجة، بل لأن الغش صار علنيًا ومشجعًا.

في ساحة المدرسة، دار نقاش بينه وبين صديقته نُهى، التي كانت بدورها تحاول البقاء صادقة في هذا المستنقع.

قالت له:

ـ منذ كنا أطفالًا، علّمونا أن الغش نوع من الذكاء. في الألعاب، في البيع والشراء، في كل التعاملات اليومية. احس اننا نعيش في غابة أنيقة. الكل يبتسم، لكن خلف الابتسامة أنياب حادة.

قال عرفان بتأمل:

ـ تعرفين نهى، حتى الحيوانات، رغم قسوة حياتها، لا تخون بعضها بهذه الطريقة. نحن نرتدي أقنعة مزيفة فنحن نتنافس بعنف اكثر من ذلك

الذي بين الحيوانات المفترسة، ونقتل بعضنا بعضًا فقط لنحصل على نجمة.

ثم أضاف وهو ينظر إلى السماء الرمادية:

ـ كم أصبح هذا العالم تافهًا. ما الفائدة من هذه النجوم و نحن نعيش في القذارة و نأكل طعاما بلا طعم في أكياس بلاستيكية، لماذا لا نصلح ارضنا و نحييها لعل الأشجار تنمو و تثمر من جديد! لماذا لا ننضف البحر الذي ماتت اسماكه و صارت رائحته كريهة من كثرة المواد الكيميائية التي يلقيها النجوم فيه؟ ثم ما هو المصير الذي ينتظر النخبة التي ستعمل في أبراج النجوم؟ نحن لا نعرف عنهم شيئًا، لا نعرف ما يفعلونه في الابراج النجمية العالية، من قال انهم سعداء؟! انا اريد ان اهرب من هذا العالم نهى، هل ترغبين في الهروب معي ؟

في نفس اللحظة كانت والدة نهى تجذبها من يدها بعنف...نظرت إلى عرفان و صرخت في وجهه:

-ما هذا الكلام؟ ما دخلك انت في عمل النجوم؟ كيف تجرؤ على انتقاد النخبة اللامعين أيها الجاهل ؟ انت الاحمق المتأخر ذهنيا تنتقد النجوم المتألقين؟! لا أريد أن أراك مع ابنتي مرة ثانية! هل فهمت؟

مسابقة التميّز

تتواصل الامتحانات و المسابقات النجمية، تقريبا كل اسبوع، هي الشغل الشاغل للناس و محور حديثهم و اهتمامهم في أرض النجوم. كل عام، تُعلن "الهيئة العليا لتوزيع النجوم" عن واحدة من أهم المناسبات في البلاد: مسابقة مدارس التميز النجمية.

الحدث لا يُقدَّم على أنه مجرد اختبار دراسي بل هو حفل مقدس.

ترى المدينة كلها تستعد له و الشوارع تمتلئ بلافتات مكتوب عليها:

"إجعل نجمك يلمع !"

"مدرسة المتميزين... بوابتك نحو العظمة!"

المدارس تبدأ التدريب قبل شهور، الأساتذة يتحولون إلى مُدرّبين عسكريين و الطلاب يعيشون ضغطا شديدا من اجل الفوز، يقول لهم المدربون: "من لا ينجح، ليس له مكان بيننا." و الفوز يعني ببساطة الذهاب إلى معسكرات العمل.

عرفان، رغم كل ما مرّ به، حاول هذه المرة أن يكون من الفائزين ليرضي و الديه، رغم انه لا يريد الذهاب الى المعسكر.

حفظ، وكتب، وتحمّل الإهانات، وتجاهل كل سؤال داخلي كان يصرخ فيه: ما الفائدة؟

وجاء اليوم المنتظر.

دخل القاعة الكبيرة، جلس بين أربعين طفلًا، كلهم يرتدون زيًا خاصًا، مزينًا بنجوم إلكترونية تُضيء كلما أجاب الطفل بسرعة.

الكاميرات تنقل الحدث مباشرة.

والأمهات يشاهدن من خلف الشاشات، و قلوبهن تهتز لكل جملة، لكل نظرة.

وفي نهاية اليوم، أُعلنت النتائج.عرفان لم يُقبل.

"ينقصه نقطتان عن الحد الأدنى" هكذا قالت المعلمة ببرود.

لكن النتيجة كانت كالصاعقة، ليس عليه فقط، بل على أمه و أبيه ايضا يوم قابله في المعسكر.

انفجر والده غضبا و دموعا و صار يتمتم بكلمات غير مفهومة...لماذا؟! لماذا لا تستطيع أن تكون مثلهم؟! ...رغم انه مقتنع في قرارة نفسه أن كل منظومة النجوم مزيفة.

اما أمه فقد كانت صامتة، لم تلم ابنها. لم تصرخ. لكنها، في هذه الليلة، أغلقت غرفتها، ورفضت الحديث مع أي أحد.

في الأيام التالية، ملأت الشاشات صور أطفال يبتسمون بزي "مدرسة المتميزين"، وفيديوهات لأمهات يبكين من الفرح، وتعليقات تقول:

"فخورة بابني، نجم حقيقي!"

"الحمد لله، ابني نجم، ابني ليس كالبقية."

وفي الاثناء ليلى صامتة، لم تنشر شيئًا. انتابها شعور غريب، أحست أنها فشلت. أنها أمّ غير صالحة و أنها ليست من الصفوة.

كانت مقتنعة تمامًا بزيف منظومة النجوم و لكن العالم من حولها كان أقوى من قناعاتها. دخلت شيئًا فشيئًا في اكتئاب حاد.

كانت تحدث نفسها و تقول لها: سوف تموتين من الحزن اذا استمر هذا الامر، لا تنظري الى هذه الصور، لا تعطيها كل هذه الاهمية، قومي بشيء مختلف، شاهدي شيئًا مختلفا، انظري الى الحياة بمنظور ثاني.

و لكنها أصبحت مدمنة على الشاشة التي سيطرت على عقلها كما سيطرت على كل العقول.

تمرر بإصبعها مقاطع قصيرة لا تنتهي. ضحكات مصطنعة، رقصات، وصفات طبخ، صراخ، أطفال متألقين، أمهات نجمات، كل شيء و نقيضه على هذه الشاشة الصغيرة التي تخدر العقول و تمتص طاقتها رويدا رويدا.

وكلما علّقت على فيديو، أو شاركت منشورًا، حصلت على نجمة.

وكل نجمة كانت تُشعرها أنها ليست منسية تمامًا. كان عرفان يراها تذوب أمامه، بصمت. لم تكن والدته هكذا ابدا من قبل.

كان يشفق ايضا للحزن الممزوج بالغضب الذي سيطر على أبيه كل ما رآه في المعسكر، فهو يعلم ان والده يعمل كثيرا ليوفر عددا من النجوم توفر العيش الكريم لعائلته. و هكذا، فهم عرفان ان النظام اخترق وخرب عقل والديه، مثل دودة تخترق تفاحة و تأكلها من الداخل، دون أن يرى شيء من الخارج.

خرج يمشي وحيدا في اتجاه الحكيم زاهر، إنه ملاذه الوحيد في هذه اللحظة.

الكلب و الجرس

في أحد أزقّة المدينة القديمة، حيث لا تصل شاشات الإعلانات، ولا يُسمع صدى الموسيقى النجمية، جلس عرفان على كرسي خشبي مهترئ بجانب الحكيم زاهر، رجل مُسنّ بلحية بيضاء وعينين غائرتين.

كان عرفان يروي كل ما مر به و الحكيم يستمع في صمت.

قال الرجل وهو يمدّ للفتى كوبًا من الشاي : هل تعرف قصة كلب "بافلوف؟"

رفع عرفان حاجبيه، وأشار بالنفي.

ابتسم العجوز وقال:

في زمن بعيد، كان هناك عالِم يُدعى بافلوف. درب كلبه على أن يسيل لعابه كلما سمع صوت الجرس، لأنه ربط ذلك الصوت بالطعام. حتى عندما لم يكن هناك طعام، كان الكلب يفرح ويستعد للأكل و يسيل لعابه... فقط لمجرد سماع صوت الجرس.

صمت قليلاً ثم أضاف بصوت هادئ:

ـ هكذا أنتم الآن. كلما لمعت نجمة على الشاشة، تبتسمون و

تصفقون. كلما أعلنوا عن فوز، تحتفلون... حتى لو لم يكن هناك طعام، ولا ماء، ولا حتى هواء نقي تتنفسونه.

نظر إليه عرفان بعينين متّقدتين وقال:

-إنهم فعلا يبدون سعداء. يقولون إنهم ناجحون، وانه من دون لنجوم، لن يكون للحياة معنى. لا افهمهم...

ضحك الحكيم زاهر وقال:

-أتعلم، في القديم، كان الناس يشعرون بالفرح عندما يُنجزون شيئًا بأنفسهم. كانوا يفرحون عندما يزرعون شجرة، او يشفون مريضًا، او يُعلّمون طفلًا. الآن، الفرح يأتيكم من زر صغير يضغطه النظام ليُصدر جرس النجمة.

-لكن لماذا لا يرون الحقيقة؟

-لا يستطيعون رؤيتها يا ولدي. هم فعلا لا يستطيعون، لأنهم يُبرمجون على التصفيق للنجوم منذ الصغر، بالضبط مثل كلب بافلوف، دماغهم لا يعرف مسارات أخرى، سيشعرون بالفراغ إن توقفوا عن التصفيق ولن يعرفوا من هم. الفراغ قاتل يا ولدي. إنهم لا يعيشون يا عرفان، انهم لا

يحسون بما تحس به انت. تبدأ الحياة الحقيقية مع الوعي بالذات. قبل ذلك نحن آلات، آلات بيولوجية، لا غير. آلات تعمل حسب برمجة معينة.

تأمل عرفان وجه العجوز، ثم تمتم:

-يبدو لي أني لم اقبل ابدا بهذا البرمجة منذ ولدت...شيء بداخلي كان يمنعني من ذلك.

وضع العجوز يده على قلبه وقال:

-انه القلب يا ولدي. ما دام القلب حيا فلا يستطيعون برمجتك. القلب هو الجرس الداخلي. استمع دائما إلى هذا الجرس الداخلي. ليس له صوت، لكنه يُرشدك. لا يمنحك نجمة زائفة بل يمنحك نورًا. اسأل نفسك قبل كل كلمة تقولها، قبل كل عمل تقوم به: هل أنا حر؟ هل أفهم ما اقوم به؟ هل هذا مفيد فعلا لي و للناس؟

سكت الاثنان. كان النسيم يمرّ خفيفًا في الزقاق، كأنّه يحمل رسالة غير منطوقة.

قال العجوز أخيرًا:

-عد الى والدتك الآن يا بني، و ساعدها أن تسمع الجرس الداخلي، ذكرها ان النجوم التي تُمنح من الخارج قد تُسحب في أي لحظة. أما النور الذي ينبع من الداخل، فلا يطفئه أحد.

اغلب الناس لا يملكون هذا النور في أرض النجوم، لا يعرفونه، أن أردت انقاذهم عرفهم به يا عرفان. حين ينبثق نور العرفان و الحرية من قلب احدهم، فهو يذوق طعما آخر للحياة و لن تهمه النجوم بعد ذلك بتاتا.

حفل النجوم

رغم الأوساخ و القمامة المتراكمة في كل الشوارع، رغم ان الهواء خانق و الماء ملوث كانت دائمًا هنالك حفلات في أرض النجوم، فهذه الحفلات طقوس اجتماعية تلعب دورا هاما جدا في مجتمع النجوم. و حفل اليوم كان مميزا لأنه يمجد الأطفال و الشباب الذين تم اختيارهم لدخول الثانوية النجمية العليا.

كالعادة، في ساحة المدرسة الكبرى، اصطفّت الحشود. أضواء لامعة، موسيقى صاخبة، أطفال يرقصون بأزياء موحّدة، والنجوم تلمع على صدورهم كأنها أوسمة شرف. المناسبة عظيمة: إعلان نتائج القبول في "الثانوية النجمية العليا"، وهي من أرقى المؤسسات في أرض النجوم.

الكل يضحك، الكل يُصفّق، حتى المعلمون يرقصون، والمذيع يصرخ من فوق المنصة: "مبروك لنجومنا المتألّقة! أنتم فخر الأرض! أنتم مستقبل الأمة!".

وقف عرفان في زاوية بعيدة، يراقب. لم يكن حزينًا لأنه لم يُقبل، تذكر كلام الحكيم زاهر و احس أن النور الذي بداخله كان اقوى من بريق

النجوم الزائفة. اقترب من زميله فراس الذي كانت النجوم تلمع على قميصه، وقال له بهدوء:

ـ هل تستطيع أن تشرح لي شيئًا؟ لماذا أنتم سعداء جدًا؟

ـ ماذا؟! ألا ترى؟ لقد قُبلنا في الثانوية العليا للنجوم! ألا يكفيك ذلك؟!

ـ حسنا، لكن... ماذا بعد؟ هل هذه النجوم ستُحسّن الهواء الذي بالكاد نستطيع ان نتنفّسه ؟ هل ستنقذ البحر و السمك الميت من حولنا؟ هل ستوفر لنا طعاما افضل؟ ارضنا تموت من الجفاف و المواد الكيميائية المتراكمة...الا ترى ذلك؟ منذ متى لم تأكل غلالا حقيقية؟ سمكا حقيقيا؟ الا تقززك هذه المواد التي يوزعونها في أكياس بلاستيكية؟ هذا ليس اكلا حقيقيا....

ـ عرفان، ما هذه الترهات؟ لا تُفسد علينا فرحتنا ارجوك!

ـ أنا لا أفسد شيئًا، فقط أطرح سؤالاً .

ساد الصمت لثوانٍ، ثم صاح فراس في وجه صديقه:

ـ عرفان أنت غاضب و سلبي لأنك لم تُقبل! دائمًا تُحب أن تكون مختلفًا! لا تريدنا أن نفرح، أنت سلبي!

ابتسم عرفان بمرارة وقال:

ـ أنا فقط ارى ما لم تعد قادرا على رؤيته.... أنتم تفرحون، لكن الحقيقة أنكم تزدادون عبودية. أنا آسف. فعلا انا آسف لأجلك يا صديقي.

انسحب عرفان وسط الحشود، ووراءه ضحكات صاخبة، وأغانٍ تصدح في الفضاء. وحده كان يرى الحبال التي تُحرّك الدمى. وحده شعر أن الحفلة لم تكن احتفالًا بالنجاح، بل إعلانًا صامتًا لانتصار النظام على العقول.

بقي يتحدث طوال اليوم مع عدد من أصدقائه، أطفال مثله، مختلفون، يعانون من تأخر ذهني حسب الأطباء. أطفال يحبون اللعب و الضحك و لا تهمهم النجوم الزائفة. أطفال يحبون الطبيعة، البحر، الأسماك و خاصة السلحفاة البحرية التي تكاد تنقرض تمامًا من جراء المواد الكيميائية و البلاستيك المتراكم في كل مكان.

في ذلك اليوم، قرر الأطفال أن يبحثوا عن السلاحف البحرية، ربما لازال هناك بيض، ربما يستطيعون حمايته حتى تعود السلاحف من جديد، ربما تنقص اعداد قنديل البحر الذي اجتاح الشريط الساحلي،

و تعود الأسماك، و يعود عشب البحر (نبات البوسيدون)، و تعود الحياة.

كان عرفان يريد أن يكون فاعلا، و ليس فقط منتقدا. علمه الحكيم زاهر أن الكلام لا يجدي نفعا و ان الناس يفتقدون النور الداخلي. إن أراد أن يساعدهم فعلا يجب أن يفعل شيئًا ينير به قلوبهم.

بينما كان عرفان يفكر، كانت كل الأنظار تتجه الى الشاشة الكبرى و العبارة المضيئة:

"من لا يملك نجمة، لا يملك شيئًا."

وبينما كان الجميع يبحث عن النجوم، كان عرفان و أصدقائه يبحثون عن بيض سلاحف البحر ليعيدوا الحياة لأرضهم.

الفصل الخامس

بداية التغيير

اللامعون الزائفون

صار عرفان يذهب كل يوم الى مقر جمعية السلحفاة الصغيرة التي أسسها مع أصدقائه. كل يوم تعترضه روائح كريهة تتصاعد من الحاويات، والذباب يملأ الزوايا، والقمامة منتشرة في كل مكان. بقايا الطعام، عبوات بلاستيكية، أكياس مملوءة بالأوساخ... ومع ذلك، كانت الشاشات الإلكترونية تعرض أغنية تقول:

"نحن الأذكى، نحن الأفضل، نحن النجوم!"

ذات صباح، توقف عرفان عندما رأى صديقه عُمير، الذي كان يركض مسرعًا، هاتفه في يده، يبحث عن مهمة جديدة ليربح من خلالها نجمة إضافية. كان عرفان يحب عمير كثيرا، يريد ان يحرره من نظام النجوم.

-عُمير! ناداه، تعال معي نبحث عن بيض السلاحف...

-ماذا؟ أنا مشغول الآن، عندي تحدي جديد: يجب ان اصور نفسي وأنا أغني أمام القمامة، سأربح نجمتين!

احس عرفان بحزن كبير، و تأكد أن الحكيم زاهر فعلا على حق. فهؤلاء الناس مبرمجون لكي يروا فقط منظومة النجوم، لا يرون شيئًا خارجها.

فعلا هم لا يرون البحر الميت و لا يشتمون الروائح الكريهة التي في الشوارع من جراء القمامة المتراكمة. ادمغتهم تقوم بفرز و ترتيب المعلومات بحسب ما يتماشى مع منظومة النجوم. لا وجود لشيء خارج هذا.

و لكنه أراد، للمرة الألف، ان يوقظه من سباته الفكري...

-لماذا تركض خلف هذه النجوم الزائفة يا عمير؟ ألا ترى؟ ألا ترى عشرات الأكياس المليئة بالنفايات، ألا تحس بالهواء الخانق؟ هذا المكان أصبح مقززًا. ألا تشم؟ ألا ترى؟ يجب أن نعيد الحياة لأرضنا، الحياة هي الكنز الحقيقي، هذه النجوم الإلكترونية زائفة، لا تعني شيئًا. لا تعني شيئًا على الإطلاق!

-بلى تعني، تعني الكثير! انت الذي ترفض أن ترى بسبب الغيرة!

-بسبب ماذا؟؟

-بسبب الغيرة! انت تغار مني لأني املك نجومًا كثيرة و انت مختل-ف فاشل لا تملك و لا حتى نجمة واحدة. ها ها ها.

تنهّد عرفان وقال في نفسه:

هو فعلا يرى العالم فقط من خلال ما لقنته منظومة النجوم، التنافس الأعمى و الغيرة هي المبررات الوحيدة للتصرفات الإنسانية حسب رايه. لكن أراد أن يذهب معه لأبعد من هذا...

-هل تعلم يا عُمير انه في الغابة، عندما تعيش مجموعة من الحيوانات في نفس المساحة، تتعاون بشكل فطري للحفاظ على نظافة مكانها. لا تجد قمامة في الطبيعة. كل شيء يعاد تدويره بطريقة حكيمة: الأوراق تصبح تربة، النفايات تصبح غذاءً، والكل يعرف مكانه ودوره.

توقف عُمير، وقد بدأ التوتر يظهر على وجهه.

-وما علاقتنا بالحيوانات؟ نحن المتألقون اللامعون متطوّرون، نملك الذكاء و النجوم. هل تقارنني بالحيوانات أيها المختل-ف الفاشل؟؟

بقي عرفان صامتا يحدق...تأكد هذه المرة انه غريب في هذه الأرض، فهو يتكلم لغة اخرى، حتى و ان كانت تتكون من نفس الحروف.

أجاب بشيء من الحدة فقد احس انه لم يعد يقبل الإهانات:

ـ الحقيقة هي انكم انتم اللامعون زائفون، أنتم مجموعة دمى يحرككم سكان ابراج النجوم، بالنسبة للحيوانات انتم متخلفون. نعم، انتم المختلون في الحقيقة، لأنكم لا تملكون الذكاء الطبيعي الجماعي.

عمير صامت فقد تفاجأ من هذا الرد...

واصل عرفان كلامه:

تعيشون كالعبيد في القمامة، تركضون وراء نجوم لا تضيء شيئًا في حياتكم المظلمة.. صحتكم تنهار، والجراثيم تنتشر و انتم تضعون السماعات الإجبارية طوال اليوم حتى لا تحسوا بشيء، عشب البحر و الأسماك تموت و انتم تأكلون تلك العجينة المقززة في الأكياس البلاستيكية.

الحيوانات التي تحتقرونها تعيش حرة في تناغم مع الطبيعة و تحترم الأرض التي تعيش عليها بالفطرة. حياتها افضل بكثير من حياتكم في الحقيقة.

سكت لحظة، ثم أضاف:

-انت فعلا مثير للشفقة يا عمير...فأنت مخدر تماما.

هزّ عُمير رأسه، كأنه يحاول طرد هذه الأفكار من ذهنه.

ـ أرجوك، لا تُربكني. أنا فقط... أريد أن أكون من الناجحين. لا أريد أن أبدو غريبًا....أو مختلا....اقصد مختلفًا، مثلك. اعذرني. الجميع يفعلون ذلك.

اقترب عرفان منه، وضع يده على كتفه، وقال:

ـ ربما أن تكون مختلفًا هو أول خطوة نحو أن تكون إنسانًا حرًّا. إلى اللقاء يا صديقي.

بعد هذا النقاش الحاد تأكد عرفان أن الكلام، فعلا، لا يجدي نفعا. إن أراد أن يغير الأمور يجب ان يكون فاعلا. يجب أن يفعل شيئًا يغير الواقع.

تعبت من هذه الحياة...

مرت الايام و الاشهر، و عرفان يشتغل في صمت في جمعيته و يستقطب اطفالا و شبابا كل يوم، دون ان يهتم للإستهزاء، و لا للإستفزاز و التعليقات السلبية. في ظهيرة يوم حار، كان عرفان جالسًا على الرمل الدافئ، يراقب أسراب النورس تحلق فوق البحر الرمادي.

بجواره، حقيبة مليئة بأوراق ومطويات الجمعية.

اقترب منه شاب نحيف، يحمل ملامح مألوفة.

-عرفان؟... أنت عرفان؟

رفع رأسه، ونظر إليه بدهشة، ثم اتسعت ابتسامته:

-سامي؟!

جلس سامي بجانبه متعبًا، كان يرتدي زيًا رسميًا باهت اللون، ويده ما تزال تحمل بطاقة العمل الممغنطة.

ابتسم وقال:

-كنت أراقب منشوراتك على الشبكة منذ فترة. في البداية، ظننت أنك ضيعت مستقبلك.

نظر إليه عرفان و قال:

-وأنت؟ ألم تكن دائمًا الأول في الصف؟ "نجم الشاشة.

أطرق سامي برأسه وقال بصوت منخفض:

-نعم... كنت.

كنت أجمع النجوم مثل الجميع، أردت الوظيفة المثالية في ناطحات السحاب النجمية، الراتب العالي، المكانة الاجتماعية و كل هذه الاحلام المفبركة وأنا الآن أعمل في الطوابق العليا لكن الراتب بالكاد يكفي، والمعاملة... كأننا آلات.

سكت لحظة ثم أضاف:

-لا أحد يعرف اسمي هناك. فقط رقمي الوظيفي.

لا أحد يبتسم، لا أحد يسمع ما يقوله الآخر، الكل يحمل السماعات الإجبارية بصفة مستمرة.

ثم إني لم أعد احب هذا العمل الذي أقوم به.

أطرق برأسه وقال وكأنه يحاور نفسه، ثم قال:

-انا اصلا لم افكر يوما إن كنت احب هذا العمل ام لا. لم اسأل

نفسي هذا السؤال.

و اليوم تبدوا لي الأمور واضحة كالشمس، لن أقوم بعمل لا أحبه و لست مقتنعا به. ابدا. لن افعل ذلك مجددا ابدا.

كان سامي يتحدث دون ان ينظر إلى عرفان، و كأنه يتحدث إلى نفسه...

-كنت احلم بنجوم اكثر فأكثر و لكني لم اكن سعيدا ابدا، لم يكن لحياتي معنى، و حتى الطعام لا طعم له ! يجب ان اضع السماعات و استمع الى الموسيقى النجمية حتى استطيع ابتلاعه. اووووه تعبت من هذه الحياة!

ثم نظر إلى عرفان وقال :

-وأنت؟ كيف تعيش الآن؟ كيف تقضي يومك؟ اراك سعيدا...أنا أحسدك على هذا، بصراحة. حدثني عن جمعيتك. ماذا تفعلون بالضبط؟

فرح عرفان كثيرا و حدثه لساعات عن الجمعية و البحر و الطبيعة و الأسماك و السلحفاة البحرية و الشمس...و الحياة الحقيقية.

ثم دعاه إلى مركز الجمعية، بعد ان تناولا الطعام معا.

دخل سامي بتردد و فوجئ بما رأى، أطفال يرسمون، شباب يناقشون قضايا الطبيعة والبحر، صداقات، دفء... ليس هناك شاشة ترصد الحركات و لا تقييم او ضغط، ليس هناك أكياس بلاستيكية و اكل صناعي بلا طعم... انهم يأكلون غلالا حقيقية طبيعية. يااااه إنها الجنة!

جلس معهم ولأول مرة منذ سنوات، نادى أحد باسمه، و ليس برقمه.

في المساء، قبل أن يغادر، وقف سامي أمام البحر، وحدّق في الأفق.

قال لنفسه:

-خسرت حياتي حين أصبحت عبدا للنجوم.

ربت عرفان على كتفه وقال:

- ابق معنا، و سوف تولد من جديد. إننا نعد مجتمعًا جديدا...

-ماذا؟

أشار له عرفان بيده أن يخفض صوته...

-إنه سر، لا تخبر احدا، إنها أرض جديدة، ارض البذور التي نزرعها، إننا نستعد. تعال معنا أن كنت تريد أن تعيش الحياة الأخرى.

النخبة النموذجية

كان هذا اليوم خاصا جدا. إنه يوم امتحان النخبة النموذجية. عدد قليل جدا من الأطفال سيلتحق بهذه المدارس المرموقة، مدارس النخبة النموذجية.

قاعة ضخمة، بأضواء باردة ومقاعد معدنية صامتة، يجلس فيها مئات الأطفال بوجوه شاحبة وقلوب تنبض بالخوف.

أمام كل واحد منهم، وُضعت ورقة بيضاء تحمل ختم "اختبار الالتحاق بمدرسة النخبة النموذجية ".

الورقة نفسها كانت كابوسًا بالنسبة للأطفال:

أسئلة بلا سياق، رموز غير مفهومة، تعليمات مكتوبة بخط يصعب قراءته.

في الزاوية، طفل اسمه آدم لا زال يحدّق في الجملة الأولى:

"إذا كان عدد النجوم المتغيّرة "ب" أكبر من النبض الكمي "ل" في وحدة الوقت المجازي "س"، فكم يكون "ق"؟"

رفع عينيه مرتبكًا... لا معنى للسؤال.

ثم نظر إلى صديقه يونس، و قال له:

-هل تفهم شيئًا؟ أنا... أنا كنت أعتقد أنني ذكي، لكن يبدو أنني لست كذلك.

لم يُجبه يونس. كان يقاوم دموعه.

في الطابق العلوي من برج القادة، كان القائد الأعلى يراقب المشهد عبر شاشات ضخمة تعرض وجوه الأطفال.

عندما سمع ما قاله آدم، ضحك بصوت عالٍ، وصفق بيديه.

-جميل. الانكسار النفسي هو هدفنا الأكبر!.

قال أحد معاونيه:

-سيدي، عدد الراسبين هذا العام قد يتجاوز 80٪. هذا كثير.

رد القائد بابتسامة شيطانية:

-بالعكس هذا ممتاز، كلما ازدادت النسبة، ازدادت الأرباح من مراكز الدعم الخاصة. وكلما تلاشت الثقة بالنفس لدى الأطفال، كلما صاروا أكثر هشاشة و اكثر طاعة.

مراكز الدعم النجمي موجودة تقريبا في كل انحاء المدينة و الكثير من الأطفال يرتادون هذه المراكز. يدربهم أساتذة مختصون في تحليل الرموز، في فهم "منطق النجوم"، وحفظ الإجابات النمطية. ولكن سعر الاشتراك الشهري في هذه المراكز يعادل راتب رجل يعمل في المعسكر شهرا كاملا.

مع ذلك، يدفع الناس كل ما لديهم، على امل ان يدخل ابناءهم هذه المدارس و لا يكونوا من الفاشلين.

وهكذا، ترسخ نظام كامل من القلق، الخوف والخضوع. الطموح و الطمع في الالتحاق بالنخبة الزائفة والتصنيف الاجتماعي الراقي بنظام النجوم.

في نهاية اليوم، أعلن أن 9 فقط من أصل 500 طفل قد تم قبولهم.

البقية؟ ذهبوا إلى منازلهم برؤوس منخفضة.

من بين هؤلاء الأطفال كان آدم يمسك يد أمه في طريق العودة إلى البيت و هو يسأل نفسه:

-هل أنا غبي؟ هل أستحق شيئًا في هذه الحياة؟

احست أمه انه مرتبك، حزين و غاضب و يائس في نفس الوقت.

-ماذا تقول ؟؟

-أنا لا أستحق الحب. أنا لا أستحق شيئًا. أضن أنني غبي و لا أستحق حتى أن أعيش...

توقفت أمه و نظرت في عينيه. كلام هذا الطفل الصغير البريء جعلها تستفيق و ترى ما كان دائما أمام عينيها و لكنها لا تراه، ربما لأنها كانت منغمسة مثل الجميع في هذه المسرحية. مسرحية النجوم.

الألم الذي في وجه طفلها جعلها تستفيق.

ما معنى كل هذا؟

ما هو الهدف الحقيقي من كل هذه الامتحانات و هذا التنافس لنيل النجوم؟

هل تعلم ابنها شيئًا جعله يتغير للأفضل؟ لا.

هل صار يفكر و يناقش بحرية؟ لا.

هل تعلم شيئًا يغير حياتهم للأفضل؟ لا.

كل ما تراه هو أن نفسيته تسوء و ثقته بنفسه تتحطم يوما بعد يوم.

منظومة النجوم تريد في الحقيقة ان تحولهم الى عبيد خاضعين يعيشون في الجهل، في وهم المعرفة، يعيشون في الخوف من الفشل و التنافس المستمر و كأنهم وحوش في الغابة، حتى لا يتمكنوا ابدا من التقدم و الارتقاء إلى مستوى بقية الشعوب الذين يسكنون الأرض.

لا.

مريم لا تريد ذلك لطفلها.

ستهاجر إلى أرض البذور التي يتحدث عنها الجميع.

الأمهات يرفضن الصمت

في اليوم التالي، خرجت مريم كعادتها لشراء الخبز، لكنها لم تكن نفس المرأة. بدأت ريح التغيير تهب.

شيء ما في قلبها تغيّر. لم تعد تبتلع الغصات وتمضي. لم تعد تصدق أن ابنها فاشل، بدأت تفهم أن النظام هو الفاشل او ربما شيطاني.

في الطريق، التقت بجارتها سميرة، أم لطفلتين.

بعد المجاملات السريعة، قالت مريم بصوت خافت:

– هل دخلت ابنتك امتحانات النخبة ؟

تنهدت سميرة:

–نعم... عادت منها وهي تبكي. قالت لي: "الأسئلة ليست عادية يا أمي. لم افهم شيئًا، انهم يعجزوننا. لا ادري كيف تختار هذه الامتحانات." ومنذ يومين، لم تفتح فمها بكلمة.

سكتتا قليلًا.

ثم قالت مريم:

-أعتقد أن هناك أمرا غير عادي. ربما الخلل ليس في أولادنا، بل في كل هذا النظام.

نظرت إليها سميرة بدهشة... ثم ابتسمت.

- أخيرًا... لست الوحيدة التي ترى هذا !

في المساء، اجتمعت ثلة من النساء في بيت صغير، بدون شاشات، بدون سماعات.

قالت مريم:

- لا أريد لابني أن يركض وراء النجوم. أريده أن يعرف نفسه. أن يكون سعيدًا، ان يتعلم أشياء تفيد الأرض و الناس التي تعيش على هذه الأرض. لا أريده "ناجحًا" حسب تعريفهم، فهذا عين الفشل والعبودية في حقيقة الأمر. إنهم يخدروننا بهذه المنظومة التي توهمنا بالتفوق...و نحن في الحقيقة نعيش اسفل سافلين. نعيش في القذارة و الفقر و الفوضى و نأكل العجينة البلاستيكية التي يوزعونها و هم يخدروننا بالموسيقى الصاخبة و المسابقات و الفيديوهات حتى نركض وراء النجوم طوال الوقت. انا سئمت هذه الحياة و سأذهب إلى أرض البذور.

قالت أخرى:

– انا ايضا سوف اذهب الى أرض البذور. ابني يحب الرسم، و قد سمعت ان هذه الأرض تقبل كل طفل كما هو، لا تضغط عليه حتى تضعه في قالب النجوم. سأجرب حظي هناك.

قالت اخرى:

–ابني يحب الطبيعة، يحب الأرض، يحب الزراعة. و سوف نتعلم الزراعة معا.

نظرت سميرة إليها، وابتسمت للمرة الأولى منذ أيام:

–لكن...هل نستطيع فعلا احياء ارضنا ؟ يا له من حلم! حسنا. نعم. أريد أن أزرع معكم!

كانت لحظات في غاية الروعة و كان الأمل في حياة أخرى يُضيء القلوب بنور وهاج.

وفي نفس الوقت ، في معسكر العمل، كان الرجال ينامون بعد يوم شاق من العمل. لم يكن اغلب الرجال في أرض النجوم يعلمون بكل ما يحصل، فقط أصدقاء مالك يعلمون بوجود ارض البذور، اما باقي

الرجال فهم يعيشون في شبه عزلة لكثرة ساعات العمل و الإرهاق الشديد الذي يحسون به على الدوام. و لم يهاجر بعد أحد منهم إلى أرض البذور. فقط النساء بدأن في الهجرة افواجا افواجا.

الفصل السادس

فن السيطرة

غرفة القيادة العليا

في أعلى البرج الزجاجي الأسود، اجتمع أعضاء القيادة العليا في قاعة ضخمة تشبه مقرات الجيوش. جلس القائد الأعلى على كرسي معدني مرتفع، يُراقب الحاضرين بعينين باردتين كالجليد.

وضع يديه الإلكترونية على الطاولة وقال:

-أعطوني التقرير الأسبوعي. هل ما زال الناس تحت السيطرة؟

نهض الضابط المسؤول عن قسم الإعلام وقال بثقة:

-الوضع مستقر، سيدي. معدّل الإدمان على الشاشات ارتفع بنسبة 12% هذا الأسبوع، وخوارزميات النجوم تعمل بكفاءة. كل شخص يتلقى محتواه الخاص بناءً على سلوكه السابق. نحن نُغرقهم بالمحتوى السطحي، القصير، المليء بالمؤثرات البصرية والموسيقى الصاخبة المتشنجة... حتى لا يجدوا لحظة واحدة للتفكير.

قال القائد:

-جميل. وماذا عن إفرازات الدوبامين؟

تدخلت طبيبة الأعصاب المسؤولة وقالت:

-ممتازة، سيدي.

كل نغمة إشعار، كل ظهور للنجوم على الشاشة، يرفع معدّل الدوبامين بنسبة تجعل الأفراد يشعرون بالنشوة، كما لو تلقّوا مكافأة حقيقية. نحن نربط الطاعة باللذة، والمعارضة بالألم الاجتماعي.

تبسم القائد :

-احسنتم. هذا ما نريده. تمامًا كما يفعل المدرّب مع الكلب. جرس، مكافأة. مخالفة، عقوبة. لا حاجة للعنف، فقط إدارة ذكية لكيمياء الدماغ.

رفع بصره الى الشاشة الكبيرة ثم قال:

-و ماذا عن العقول الحرة ؟

تقدّم ضابط الأمن الإلكتروني وقال:

-أما عن العقول الحرة... فتم رصد ثلاث حالات في هذا الأسبوع. شاب ينشر صورًا للحيوانات التي تموت من التلوث الكيميائي، وامرأة كتبت تعليقًا فلسفيًا، وطفل رفض اللعب بلعبتنا الإلكترونية الجديدة.

-وماذا فعلتم؟

– تم التنبيه عبر خوارزميات التوجيه الجماعي. فالمتابعون نفسهم هاجموهم وسخِروا منهم حتى حذفوا منشوراتهم أو انسحبوا من المنصات. كما تم خفض مستوى ظهورهم على الشبكات بنسبة 80%.

ابتسم القائد قائلاً:

– ممتاز.

عندما يُهاجم القطيع أي محاولة للتحرر، نكون قد وصلنا لمرحلة الإدمان الجماعي.

وقف فجأة، مشى ببطء بين الطاولات، ثم قال بنبرة هادئة:

–تذكّروا، أيها السادة، مهمتنا ليست أن نحكم الناس... بل أن نمنعهم من الرغبة في التحرر. النظام المثالي ليس الذي يقمع الأفراد، بل الذي يجعلهم يقمعون أنفسهم... طوعًا.

ثم أضاف بابتسامة باردة:

–استمروا في ضخّ الفيديوهات، التحديات، الأغاني السطحية، والقصص المشوّهة.

دعوهم يرقصون، يضحكون، ويتصارعون على النجوم... بينما نحن نجني الطاقة، والموارد، والسيطرة.

انتهى الاجتماع و خرج الجميع، بقي فقط صوت أجهزة الحواسيب التي تعمل في الخلفية.

نغمات السيطرة

نظام النجوم كان في غاية التعقيد. كل طابق من الابراج النجمية مخصص لمهمة معينة. في الطابق المئة من برج النجوم الأوسط اجتمع كبار المهندسين النفسيين والمخططين الاستراتيجيين. هؤلاء لديهم مهام خاصة و لا يُسمح لأحد بالدخول إلا لمن يحمل شارة السلطة العظمى.

جلس "ألتيما" في منتصف القاعة، رجل في الستينات من عمره، صامت في أغلب الأحيان، يستمع للموسيقى الكلاسيكية وهي تتسلل بهدوء من مكبرات خفية مثبتة في زوايا السقف.

افتتحت الجلسة و قال أحد الحاضرين وهو يعدل نغمة على شاشة زجاجية شفافة:

-لقد لاحظنا انخفاضًا طفيفًا في تفاعل الأطفال مع الموجة الموسيقية الخامسة، خاصةً في المسارات المخصصة للصباح.

رد آخر وهو يبتسم بثقة:

-لا بأس، سنضيف إيقاعًا أكثر سرعة، وتكرارًا أكثر إثارة. هذا الجيل يحتاج إلى ضجيج مستمر كي لا يجد وقتًا للتفكير.

وقف ألتيما، وقال بصوت هادئ:

-تذكروا دائمًا... السيطرة لا تكون من خلال القوة، بل من خلال ما يعتقد الناس أنه حرية. الموسيقى سلاحنا المخفي لتحقيق ذلك.

في الخارج، على طرقات أرض النجوم، كانت المركبات الطائرة الصغيرة تبث نفس الألحان. الأغاني كلها متشابهة: ضجيج إلكتروني، كلمات بلا معنى، وإيقاع يدفع الأجساد للحركة العشوائية. بكل بساطة، الهدوء ممنوع.

كانت كل الأمهات تضع الموسيقى بصوت عالٍ كل صباح، وكأنها جزء من الطقوس اليومية. لكن باسل، الطفل ذو الأحد عشر عامًا، كان يرى شيئًا آخر.

كان باسل يشعر بوخز في قلبه كلما سمع تلك الموسيقى. لم يعرف لماذا، لكنه كان يشعر أنها تسرق شيئًا منه. شيئًا عميقًا. شيئًا لا يُرى.

في ذلك اليوم، وهو في المقعد الخلفي من سيارة والدته، وضع أصابعه في أذنيه. أغمض عينيه. وحاول أن يسمع شيئًا آخر...ربما نبض قلبه او على انفاسه، شيء ينبع من الداخل.

-ما بك؟ صاحت أمه. هل أنت مريض؟

في الفترة الأخيرة، في مركز التنمية النجمية، لاحظ المعلمون تصرفاته. لا يشارك في الضجيج الصباحي، لا يحفظ المحفوظات.

أُرسل الطفل إلى المستشارة النفسية، التي سجلت تقريرًا سريعا: "سلوك انعزالي، احتمال خلل في التفاعل الموسيقي العصبي."

في الوقت نفسه، في الطابق المئة من برج النجوم، تم عرض صورته على الشاشة الكبيرة. سأل أحد المسؤولين:

-متمرد آخر؟

أجاب ألتيما دون أن يرفع عينيه:

-لا تقلقوا... النظام سيعيد برمجته، كما أعاد غيره.

لكن المسؤول عن نغمات السيطرة لم يكن مطمئنًا. لأن هناك موضة جديدة بين الناس، نغمات ممنوعة بدأت تتسرب. هو يعرف جيدا الفرق بين الموسيقى التي تهدم العقول و تلك التي تطورها، فهو يستمع دائمًا للموسيقى الكلاسيكية. هناك خطر محدق على نظام النجوم، و لا يجب ان يتجاهل الأمر.

النغمات الممنوعة

باسل كان يقضي كل وقته في غرفته الصغيرة، في شقة داخل عمارة قديمة. جلس باسل هذا الصباح أمام بيانو قديم، مغبرّ، كان قد وجده مع والدته ذات يوم في سوق الأغراض القديمة. كانت أصابعه تتحرك ببطء فوق المفاتيح الصفراء، تُخرج ألحاناً متقطّعة، غير متقنة، لكنها صادقة، تنبع من احساسه. ألحانٌ لا تشبه الموسيقى الرسمية التي اعتاد الجميع سماعها في أرض النجوم.

في الأسابيع الأخيرة، بدأ باسل ينسحب من الشاشات وعالم الشبكات الاجتماعية. لم يعد ينشر صوره اليومية، ولم يعد يشارك في تحديات "نقاط الولاء"، ولا يتابع مقاطع المؤثرين المروّجين للنظام. حتى سماعات الأذن، تلك التي لا يخلعها أحد في أرض النجوم، تركها في الدرج، وراح يعزف على البيانو.

وقفت والدته، على باب الغرفة في هذا الصباح، تنظر إليه بقلق ودهشة.

– باسل، ماذا تفعل؟ هذه الأمور لا تنفعك، ولا تصنع مستقبلاً لامعا. عليك أن تتفاعل مع أصدقائك، أن تربح النجوم و تكون متميزا، أن تشاهد البرامج... أنت تضيع وقتك بهذه الآلة القديمة، انت تهدم مستقبلك بيديك بينما أصدقائك سيكونون من النخبة التي تعمل في المعسكرات.

أجابها بهدوء دون أن ينظر إليها:

– أحسّ براحة غريبة. لا أدري لماذا، لكن العزف... يجعلني أشعر أنني حي.

– حي؟! وهل هناك حياة خارج الشبكة؟ الحياة فقط في الشبكة، حيث الناس، حيث النجوم والعروض والمسابقات! ألا ترى كيف أصبح ابن خالتك مؤثراً؟ أنت تضيّع مستقبلك يا باسل!

لكنه واصل العزف، وكأن كلامها لا يصل إليه.

في نفس الوقت، في الطابق المئة من برج النجوم نهض رجل نحيل، أصلع، يرتدي بدلة رمادية لامعة، كان يُعرف باسم "المدير العام لوحدة الثقافة الجماهيرية".

-ما هذا الذي أسمعه؟ تقارير فورية، الآن!

اقترب منه ألتيما وقال:

-حالات معزولة. لكنها تتزايد. أطفال ومراهقون يعزفون البيانو، الجيتار، وحتى الكمان. نسبة الاستماع للمقاطع الرسمية انخفضت 30 % هذا الشهر. ثم أضاف...وهناك من ينسحب من الشبكة.

ضرب المدير العام الطاولة بقبضته، فاهتزّت الشاشات.

- هذه أول علامات التمرّد. الموسيقى الحرة خطيرة. إنها تفتح الأبواب نحو التفكير الحر.

توجه إلى ألتيما قائلاً:

- ارفعوا أسعار الآلات الموسيقية فوراً. اجعلوها بعيدة المنال. واقطعوا كل سلاسل التوزيع. وأطلقوا حملة "إيقاع وجوائز" على كل القنوات. نريد تخفيضات ضخمة على الهواتف الذكية، ومسابقات مغرية. نريد أن نعيد الإدمان.

وأشار إلى شاشة ضخمة تظهر فيها صورة باسل جالساً أمام البيانو.

-هذا الطفل... تعقّبوه. ادعوه لبرنامج "الشباب النموذجي". إن رفض، فاسخروا منه علنًا. يجب أن يخاف الناس من الاختلاف.

تحرّكت الآلات، وبدأت الأوامر تنتقل بسرعة الضوء.

لكن باسل، في غرفته الهادئة، كان لا يزال يعزف... دون أن يدري أنه، بلحن بسيط، قد أعلن الحرب، و ليس وحده من أعلن الحرب...

صفحات حرة

في الأزقّة الجانبية لأرض النجوم، هناك مقاهي كئيبة مظلمة، كان روادها يقضون اليوم في تصفح الفيديوهات المؤثرة و جمع النجوم. و لكن في الأيام الأخيرة ظهرت مبادرة صغيرة، مبادرة هادئة، لكنها خطيرة.

كان اسمها "جمعية الصفحات الحيّة". مجموعة من الشباب والكبار، جمعهم حنينٌ قديم إلى الكتب.

كانوا يشترون الكتب المستعملة، ويزورون المسنّين في الضواحي، يسألونهم بلطف:

-هل لديكم كتب قديمة؟ نحن نُريد أن نُعيدها للحياة.

وبدأوا، بصمت، يضعون رفوفًا صغيرة في المقاهي. كتاب هنا و كتاب هناك. بين كأس ماء وفنجان قهوة، قصة قديمة أو مجلة تنتظر قارئًا.

في البداية، لم ينتبه أحد. لكن الأمور بدأت تتغير شيئًا فشيئًا. بعض الزبائن توقفوا عن لمس هواتفهم. البعض جلس يقرأ ... وبدأت صور الكتب تظهر على الشبكة.

في نفس الوقت، في الطابق العلوي من برج قيادة النجوم، انطلقت صفارات الإنذار. هذه الصفارات تعني ان هناك أمرا على غاية من الاهمية.

دخل المدير التنفيذي لقطاع "التفاعل الجماهيري" وهو يصرخ:

- ما هذا الخور؟! هناك من يضع الكتب في المقاهي!

اقتربت منه مساعدة ترتدي نظارات بيانات شفافة وقالت:

-لا ندري سيدي، و معدل الانخراط في المسابقات الرقمية انخفض فجأة 4%

هذا الأسبوع.

بدأ الناس يتحدثون عن القصص و الكتب، و هناك كتب فلسفة أيضا...

ضرب الطاولة بقوة:

-ماذا؟ فلسفة؟ ما الذي يحدث؟! لدينا أزمة كبيرة. لا نريد قرّاء! القارئ يُفكّر. والمفكر يُشكّك. نحن نريد مُستهلكين.

ثم التفت إلى الفريق قائلاً:

-أطلقوا مسابقة "الكنز الرقمي". لعبة جديدة، سخيفة، مليئة بالألوان والحوافز. كل من يلعب ساعة، يدخل السحب على جائزة مالية. اجعلوها مغرية: رحلة مجانية إلى المركز التجاري، مع رصيد مفتوح للشراء.

وتابع بنبرة أكثر حدّة:

-وابدأوا بحملة تشويه. قولوا إن القراءة تسبّب الكآبة، وإنها نشاط المنعزلين. اجعلوها موضة قديمة، لا تليق بجيل النجوم.

تحرّكت الماكينات الإعلامية. عادت الشاشات إلى الوميض. وعاد الناس إلى الانشغال بجمع النقاط، والركض وراء تخفيضات افتراضية.

لكن في خضم كل هذه الضوضاء ... في ركن هادئ من مقهى صغير، جلس باسل، يقرأ كتابا عن الحرية.

ظهر وجه الطفل في نفس اللحظة على شاشة القائد الأعلى للنجوم، حدق القائد في الشاشة، هذا الطفل يمثل لغزا بالنسبة له، يجب ان يضع خطة محكمة لبرمجته و اعادته الى القطيع... ثم ضغط على زر الطوارئ: اجتماع عاجل على الفور.

الفصل السابع

قرارات حاسمة

معرفة تحت السيطرة

-سيدي، لا تقلق، لقد اتخذنا الإجراءات اللازمة حتى تفشل هذه الجمعية.

ولكن القائد الأعلى كان قلقا، كان يحدّق في الوجوه المصفوفة أمامه بنظرة صارمة، ثم قال بصوت منخفض :

-الأمر أخطر مما تظنون.

علينا أن نُرسّخ في أذهان الجميع أن الطريقة الوحيدة للتعلُّم... هي عبر نظام النجوم فقط.

توقّف للحظة، ثم تابع بنبرة حاسمة:

-القراءة الحرة هي أكبر تهديد لبنيتنا. لأن الكتب تفتح نوافذ على آراء متعددة، على احتمالات لا يمكننا التحكم بها. ومن يقرأ بحرّية... يفكر بحرّية. ومن يفكر بحرّية، لا يمكن السيطرة عليه.

اقترب من الطاولة الزجاجية المستديرة، وأشار إلى مجسم ثلاثي الأبعاد لمبنى مركز تنمية النجوم الاولى الذي يستقبل الأطفال منذ سنتهم الاولى، و هم مازالوا رضعا.

-نحن لا نريد مفكرين. نحن بحاجة إلى مواطنين مُبرمجين، مطيعين، جاهلين، متعلّقين برؤية واحدة، عقيدة واحدة، لا يطرحون الأسئلة... لأنهم تعلّموا منذ الصغر أن هناك "إجابة صحيحة واحدة"، يجب حفظها وتكرارها، ليحصلوا على نجوم.

ثم ضرب الطاولة بعنف بأصابعه الإلكترونية الطويلة:

المعلومات الوحيدة القابلة للنقل... هي تلك التي نقرّرها نحن. أي معلومة خارج

نظام النجوم... ممنوعة، مرفوضة، غير معترف بها.

هل من افكار يا سادة؟

خيم الصمت.

-لديّ فكرة...

اقترب مهندس شاب، خريج جامعة المهندسين النجوم، من الشاشة المركزية، وعرض مخططاً ملوناً:

سنُنظّم "مهرجان القراءة الوطني"، مناسبة سنوية ضخمة. نغمر فيها السوق بكتب "آمنة": وصفات طبخ، كتب سطحية عن العلاقات،

عن الخيانة، عن الجنس والعاطفة الجياشة، كتب أطفال تحقنهم بالخوف والطاعة منذ الصغر. ونُضيف قليلًا من التاريخ المحرّف، كقشرة ثقافية تجمّل كل هذا.

ثم تابع بابتسامة أكثر اتساعًا:

هكذا، يعتقد الناس أنهم مثقفون. يملؤون رفوفهم بالكتب، خاصة النخبة... لكننا نظل نحن من يتحكم في مضمونها. من يزرع عقولهم. ومن يُحدّد سقف تفكيرهم.

رفع القائد الأعلى يديه وصفق و قال:

-أحسنت. أحسنت. فكرة رائعة. هل أنت المهندس الجديد الذي التحق بنا منذ شهر؟

-نعم سيدي القائد الأعلى، و اتمنى ان ينال عملي اعجابكم.

أومأ القائد الأعلى برأسه...

-نعم. و سيتم ترسيمك و الزيادة في أجرك.

-من أي جامعة نجوم انت بالضبط؟

-من جامعة النجوم الجنوبية سيدي. كنت الأول على دفعتي. نجم نجوم

السنة.

نظر القائد الأعلى إلى مساعده قائلا...

-جميل. جميل جدا. هذه الجامعة تقدس النجومية و التألق، تنتج عقولا مطيعة تخدمنا بكل ولاء. زود إمكانياتها حتى نستقطب أكثر عدد من شباب المنطقة.

-حسنا سيدي.

وقف القائد الأعلى لإنهاء الاجتماع و اشار إلى مساعده:

-أريد حملات دعائية ضخمة لهذا المهرجان. مسابقات، جوائز، تكريم للكتاب النجوم المتألقين، هدايا للقراء النجوم. ولنُهمّش في الوقت نفسه كلّ من يروّج لكتب حقيقية أو نقدية. نُخفض تصنيفه، نُشوّه سمعته إن لزم الأمر.

ثم خرج، وقال بنبرة باردة:

-المعرفة المسيطر عليها... هي أقوى سلاح لدينا. أما المعرفة الحرة... فهي بداية السقوط.

أيادٍ حرة

كانت القرارات تطبق بصفة آنية و تتم محاصرة و إجهاض كل محاولة تحرر من نظام النجوم.

و لكن، منذ تكوين جمعية السلحفاة الصغيرة و جمعية الصفحات الحرة و غيرهما من المبادرات الصغيرة، كانت هناك نسمات مختلفة في الهواء. نسمات تجتمع و تكون رياحا ستعصف بأرض النجوم قريبا.

بالإضافة إلى ذلك، بدأ نوع جديد من الفيديوهات ينتشر عبر الشبكات الاجتماعية. لم يكن فيه رقص عشوائي، ولا تحديات فارغة، ولا فلاتر تجميل... بل كان يُظهر رجالًا ونساءً يُعيدون الحياة إلى الأشياء القديمة: مثلا امرأة تصلح ثوبًا قديماً و تعيد تشكيله، شاب يصنع خزانة خشبية من بقايا صناديق مهملة، فتاة تُحوّل قطع الزجاج المكسورة إلى مصابيح فنية...

هذه المقاطع، على بساطتها، بدأت تلقى رواجاً غريباً. الكثير من الناس علّقوا قائلين:

"كم هو جميل أن تصنع شيئًا بيدك!"

"أريد أن أجرّب!"

"لقد بدأتُ في صنع الطاولة الأولى لي..."

في نفس الوقت، في أعلى البرج، في قاعة الاجتماعات المعزولة بالزجاج الأسود، اشتعلت الأضواء الحمراء و صفارات الإنذار: اجتماع عاجل.

دخل "المسؤول الأعلى للاستهلاك والولاء"، وجهه مشدود، وملامحه لا تخفي القلق.

قال بصوت حادّ:

-هناك كارثة. فئة من المستخدمين بدأت تحقّق نسب مشاهدة عالية... عبر محتوى يُشجّع على الاستقلالية. تصليح. خياطة. صناعة يدوية. إعادة تدوير.

نظر إليه القائد الأعلى ببطء، ورفع حاجبه الأيسر.

-هل تعني أنهم... يعملون بأيديهم؟ داخل منازلهم؟

-نعم، سيدي. ويعرضون منتجاتهم للبيع المباشر. وبعضهم أصبح له جمهورٌ يتعلّم منه. هناك موجة تعاطف. والكثير من الناس بدأوا

يتساءلون: لماذا نشتري اشياء باهظة الثمن و نضطر لجمع النجوم حتى نشتريها؟ لماذا لا نصنع كل شيء بأنفسنا؟!

وقف القائد الأعلى وبدأ يذرع القاعة بخطوات متوترة.

-هذه حالة طوارئ، لقد وصلنا الى الخط الاحمر، أن يصنع الإنسان شيئًا بيديه... يعني أنه بدأ يتحرّر. أن يُدرك أن بإمكانه الخَلق... لا الاستهلاك فقط. هذا أخطر من القراءة. أخطر من الموسيقى الحرة.

ثم التفت إلى فريقه قائلاً:

يجب تفعيل خطّة فورية. أولاً: تقليل ظهور هذا النوع من المحتوى على المنصّات. نُخفض الانتشار تلقائيًا. نجعل الفيديوهات تُحمّل ببطء. نحجب التعليقات

الإيجابية.

وتابع دون أن يلتقط أنفاسه:

-ثانيًا: نُطلق حملة استيراد ضخمة. ملابس رخيصة. أدوات بلاستيكية ملوّنة. أوانٍ لامعة. كل شيء يجب أن يكون متوفراً، بسعر

زهيد، مع عروض وخصومات مغرية. لا يجب أن يُفكّر الناس في الصنع، بل في الشراء... بسرعة.

نُفعّل أيضاً خاصية "الشراء بنقرة". كل مقطع فيديو يكون مرتبطًا بمنتج. كل منشور يُؤدي إلى إعلان. اجعلوا من كل لحظة شبكة لحظة استهلاك.

قالت مساعدته:

-وماذا نفعل بمن يُصرّون على التعليم؟ من ينشرون دروس النجارة أو الخياطة حتى مجانا؟

-هؤلاء....ليُدرجوا في قائمة "الأنشطة غير المربحة". خفضوا تقييمهم الاجتماعي. اجعلوا حساباتهم ثانوية. من يخالف نموذجنا... يُمحى من الواجهة.

ثم توقّف، ونظر من النافذة نحو المدينة تحتهم، حيث كان الضوء يتسلّل من نوافذ بعض البيوت.

-الحرية لا تبدأ بالشعارات... بل بالمطرقة والإبرة. إن لم نوقف هذا الامر... سنخسر كل شيء.

خرج القائد العام الأعلى و ذهب ليلحق بمجموعة من علماء النفس النجوم. هؤلاء العلماء، من النخبة، كان قد كلفهم منذ ايام بدراسة الطفل باسل، و طلب منهم اعداد اقتراحات عملية لترسيخ منظومة النجوم في المجتمع بطريقة أعمق. يجب وضع خطة تدخل سريع محكم و الا سينهار النظام بأكمله.

عامل "د"Dark factor

جلس القائد العام على منصة في قاعة كبيرة في برج النجوم، تحيط به شاشات تعرض بيانات كثيرة، وهو يُلاحظ وجوه المسؤولين والمدرسين الجدد بحزم.

بدأ مساعده الحديث لتقديم فحوى الاجتماع:

ـ ايها السادة، موضوع اليوم هو العامل "د". حسب علم النفس الظلامي يمثل هذا العامل الأساس للسيطرة المستمرة. سنرى اليوم كيف نفعله بصورة شاملة في المجتمع لنحقق اهدافنا. نريد مواطنين مطيعين خاضعين، و منشغلين طوال الوقت في التنافس مع بعضهم البعض. يجب ان نقضي على بذور التعاون و المصلحة العامة التي بدأت تنمو مؤخرا مع موجة الموسيقى الحرة، ثم الكتب، ثم الخلق و الابتكار و هو فعلا خط احمر. نريد مواطنين عاجزين جاهلين، انانيين و نرجسيين، لا يترددون في تعظيم مصلحتهم الشخصية، حتى لو اضطروا للتخلي عن القيم الجماعية. اصلا لا نريد ان تكون هناك قيم جماعية و قد توصلنا الى هذا منذ تفكيك الأسر و ارغام الرجال على العمل في معسكراتنا، بفضل

استراتيجية نفسية، و كيميائية محكمة. هذا انجاز كبير في حد ذاته، شكرا لعلمائنا الافاضل. و لكن يجب ان نقوم بالمزيد لضمان عبودية هذا الشعب و ملكنا لهذه الأرض.

سنشتغل اليوم اذا على العامل "د"، إن زرعنا في الأطفال هذا العامل منذ الصغر نكون قد نجحنا في التحكم في شعب النجوم كله.

تنفس القائد الأعلى بعمق، ثم أوضح:

-حسنا، حسب الدراسات التي وردتني من لجنتكم، لجنة علم النفس الظلامي، يشمل هذا العامل خصائص نفسية نرجسية، ميكيافيلية، وافتقاد التعاطف، وهي أدوات فعالة تساعدنا في تعزيز التنافس و الأنانية و العنف الاجتماعي، و كلما فرقنا...سدنا.

هل لديكم اقتراحات عملية لتفعيل هذا على أرض الواقع، لنطبق هذه النظريات و نبرمج الأطفال منذ الصغر حسب العامل "د"؟

تدخل الأعضاء واحدا تلو الآخر:

الدكتورة ماريا (أخصائية نفسية تربوية):

ـ اقترح ورشات "تدريب جسدي-ذهني" للأطفال من السنة الأولى:

تمارين تُعزز الانضباط، الالتزام، الصمت أمام الحضور والامتثال للأوامر دون تفكير. العامل "د" يتكون خاصة لدى هذه الشريحة من الناس، اقصد الناس الذين تربوا على الالتزام الشديد و الصمت و نفي الذات. فمن هنا يحدث رد الفعل الذي يجعلهم ينساقون لإرادة التحكم في الآخرين دون أي وازع اخلاقي، و يضخمون ذواتهم بطريقة مرضية.

-صحيح، هذا صحيح دكتورة ماريا، قال القائد، واصلي في هذا الاتجاه و سنرصد الأموال اللازمة لتفعيل هذا المقترح.

المهندس عارف:

ـ انا ارى انه يجب تشريك الأمهات اكثر في تعزيز العامل "د"، و بالتحديد النرجسية و الأنانية لدى الطفل. لدي اختراع جديد... في سن 3 سنوات نوزّع أجهزة تربط الأطفال مباشرة بجهاز مركزي يقيم انماط السلوك. نستطيع تدريب الأمهات لاستخدام هذه الأجهزة لرفع "المعدّل الإدماني" لكمية النجوم التي يجمعها الطفل، لتعزيز الأنانية، و ايضا النرجسية او حب الذات المبالغ فيه.

أجاب مساعد القائد:

-بالنسبة للأمهات نحن بصدد دراسة محتويات جديدة على الشبكة و مسلسلات درامية، تغرق المرأة في مشاعر سلبية و تجعلها أكثر هشاشة مشاعرية، فنتحكم فيها بطريقة أفضل. الأمهات جنودنا ما دمن تحت السيطرة النفسية. واصلوا اقتراحاتكم إذن تفضلوا...

وقفت الدكتورة النفسية سامية لتتكلم:

ـ انا اقترح ان نطفئ تدريجيًا الإحساس بالذنب والتعاطف او التسامح ونزرع فيهم طول الوقت فكرة 'المصلحة الشخصية هي الأهم. سيصبحون بشرا وحوشا. قالت و هي تشير الى ملف أمامها: لدي عدة افكار عملية في هذا الملف.

قاطعها عالم الاجتماع المعروف ضياء:

ـ حسب رأيي، الأهم من كل هذا هو برمجة المسؤولين ومدربي كل مراكز التنمية النجمية، خاصة المرحلة الأولى، حتى يطبقوا استراتيجيتنا بطريقة مستمرة، دون وعي. دون ان يطرحوا اي أسئلة. هذا الأهم برأيي.

اومأ القائد الأعلى برأسه، أحسنت أحسنت...واصل.

- حسنا، يجب أن يخضعوا لدورات خاصة في كل مكونات العامل

"د": مثلا كيف يتجنبون إشعار الطفل بأي شعور إنساني حين يبكي أو يتعاطف. يجب محو هذا الشعور تماما و جعله امرا مخزيا، اذ لا مكان للضعف في أرض النجوم! و القوي هو من يكتم مشاعره و لا يتعاطف مع احد. الفائز و الجاف عاطفيًا هو القدوة و هو الذي يقدم نموذج النجاح.

-أحسنت، أحسنت، أجاب القائد الأعلى، بالفعل يجب أن نركز الجهد على برمجة المدربين و المسؤولين، يجب تضخيم الذات لديهم و تعزيز العامل "د" حتى نحقق

أهدافنا بواسطتهم، بكل سلاسة، وبطريقة تبدو طبيعية للغاية لعموم الناس. يجب ان نبحث هذا الامر بجدية و أن نضع استراتيجية كاملة لبرمجة المسؤولين.

قالت عالمة التاريخ سعاد:

ـ سيدي، هناك امر آخر على غاية من الاهمية...

-ما هو، قال القائد...

-التاريخ سيدي، التاريخ هو ما يبرمج العقول عن طريق اللاوعي

الجمعي. اقترح ان نفعل "السرد التاريخي الجديد" يعني نغير الوقائع أو نسردها بالطريقة التي تخدمنا، نكوِّن في ذهن الطفل فكرة أن العالم يقوم على القسوة، والنجاح للأقوياء، الفائزين، يجب أن نقضي على فكرة التعاون ، يجب ان نجهضها تماما منذ البداية، نخبرهم ان الحياة تقوم على التنافس وليس على التعاون. و كل الاستراتيجيات الملتوية الميكيافيلية مقبولة بهدف الربح.

رد القائد العام:

-احسنتم، أحسنتم جميعا. أريد الآن خطوات عملية، اجمعوا كل هذه الافكار و أريد الخطة العملية كاملة على مكتبي غدا صباحا.

وقف لينهي الاجتماع وقال:

-اريد خطة تفصيلية. أريد برامج تدريب، توجيه نفسي، أجهزة قياس العاطفة، مناهج جديدة : كل شيء يبدأ من الصغر! عقل الطفل مادة خام و نفسيته هشة. و هو يقضي كامل اليوم في مراكزنا، يجب أن نزرع و نعزز فيه العامل "د" بكل الطرق.

البذرة السوداء

بدأت لجنة العلماء في تفعيل استراتيجيات العامل "د". و خصصت لجنة كاملة لبرمجة المسؤولين عن مراكز التنمية النجمية الأولى، فهي الحاضنة التي يقضي فيها الطفل كامل يومه.

و في مركز سري تحت الأرض، اجتمع أعضاء اللجنة الخاصة ببرمجة المسؤولين، و كانت هناك شاشة كبيرة تُعرض فيها ملفات شخصية دقيقة للمرشحين ليكونوا مديري مراكز التنمية النجمية الأولى.

وقف القائد المساعد يقرأ البيانات على الشاشة:

-كما تعلمون يا سادة، نحن لا نختار القادة كما يظنّ الناس... بل نصنعهم.

في نفس الوقت كانت الشاشة تظهر مشاهد من ذكريات طفولة المرشحين، مثلا كان هناك طفل يبكي في فصل مكتظ لأن معلمه سخر من خطه القبيح، فتاة صغيرة تُعاقبها المعلمة و تسجنها في المرحاض، ولد آخر يُكافَأ بقطعة حلوى لأنه خان صديقه وقدّم اسمه في لائحة «المشاكسين»، الخ.

قال العالِم النفسي:

-مهمتنا تكمن أولا في انتقاء الأشخاص الفاقدين للثقة في النفس، المحملين بذكريات سلبية من الطفولة، و نظرة سلبية للحياة بصفة عامة. هذا النوع من الأشخاص بمثابة الذهب الخالص بالنسبة لنا، فهم يتمتعون بعامل "د" مرتفع منذ البداية، اي انعدام التعاطف الإنساني، مع وجود الذكاء الميكيافيلي الخبيث، و بطبيعة الحال النرجسية و تضخم الذات و هو ما يجعلهم مجتهدين إلى أبعد حد في تقزيم الآخرين.

ثم نُعيد تفعيل هذه الذكريات خلال التكوين عبر المحاكاة الحسيّة التي طورها مهندسونا الاكفاء، أصوات طفولة، تذكير بالخوف من الفشل، بالعار، بالحاجة الماسّة إلى إثبات الذات...الخ. الشباب المهندسون خريجو الجامعات النموذجية يطورون هذه التكنولوجيا باستمرار.

- هل يعلمون انها مخصصة لمراكز التنمية النجمية الأولى ؟

-لا سيدي، بالطبع لا. هم يظنون انها مجهزة لأعداء بلادنا، أعداء أرض النجوم. أما نحن فنستعملها لبرمجة القادة بصفة عامة، مديري مراكز التنمية النجمية الأولى، رؤساء مراكز التدريب للنخبة، الخ.

-أحسنت. أحسنت.

ثم أضاف عالم آخر، مختص في برمجة الانفعالات:

-نحن نعمل على المستوى النفسي الدقيق، نُقنع كل مرشّح أنه نجا من ماضيه لأنه كان أقوى، أذكى، أقدر على الأنانية و الخيانة إن تتطلب الأمر... نزرع فيه شعورًا خفيًّا بالنجاة الفردية، وبأن التعاون ضعف. خطتنا محكمة سيدي: كل مدرب، كل مدير، كل مسؤول نعينه هو شخص مكسور في الداخل، لكنه مقتنع أن نجاته كانت بسبب ذكائه الفوقي، وقدرته على المنافسة، قدرته على الإقصاء، و الطاعة العمياء للسلطة دون تساؤل.

فإذا ترقّى، أصبح نموذجًا يُحتذى به، فينقل هذه الفكرة إلى المدربين... والمدربون ينقلونها بدورهم إلى الأطفال، دون وعي، وبكل تلقائية.

هو يفعل ذلك دون أن يشعر بأنه مجرد أداة.

صفق أعضاء اللجنة ثم قال القائد المساعد:

-عظيم. رائع. بهؤلاء القادة، لا نحتاج إلى الجنود... هم جيشنا في عقول الأطفال. إننا لا نُلقّن فقط المناهج... نحن نُلقّن طريقة التفكير في العالم

وطريقة الشعور تجاه الذات وتجاه الآخرين. شكرا لكم لهذا العمل الجبار، أنتم تقومون بإعادة تشكيل الإنسان من الجذور وبزرع البذرة السوداء، بذرة العامل "د" الذي سنعمل على تنميته إثر ذلك.

الفصل الثامن

الشرخ

بداية التمرّد

في الطابق الثالث من برج النجوم، جلس المهندس سامي أمام شاشته الشفافة، يتأمل قائمة الحسابات الرقمية التي وُضعت تحت "المراقبة الحمراء". كانت المهمة اليوم كالمعتاد: تصفية. تقليل الظهور. كتم التعليقات. كسر الخوارزميات.

لكن إسمًا واحدًا جعل أنفاسه تتوقف.

"ميرا ن. ف."

مشتركة جديدة، عدد المتابعين في تصاعد، المحتوى: خياطة يدوية، صناعة حقائب قماشية، تعليم مبسّط للفتيات في الأحياء الشعبية كيف يبدأن مشروعًا صغيرًا.

فتَحَ إحدى الفيديوهات، وظهر وجهٌ يعرفه جيدًا. ابتسامة أخته الصغرى، نفسها، تلك التي كانت تخبز له الكعك عندما يعود من مركز تنمية النجوم الأولى.

جلس مشدوهًا، يشاهدها وهي تشرح كيف تستعمل الإبرة، كيف تختار

القماش، كيف تُسعّر منتجاتها. الفيديو مليء بالحب، بالبَساطة... وبروح الإبداع التي يعرفها في اخته. اخته التي افنت شبابها في جمع النجوم مثل آلاف الشباب، ثم لم تجد عملا. اندثرت أحلامها و مرت بأزمة نفسية حادة، قررت بعدها أن تتعلم مهنة يدوية توفر لها متعة الإنجاز، فهي تحب التصميم و الخياطة والأعمال اليدوية المبدعة.

بقي سامي يحدق في الشاشة وكأنه، و لأول مرة في حياته فهم أمرا مهما، ثم ضغط على زر "إيقاف المهمة". وقف، خلَع بطاقة التعريف الإلكترونية من عنقه، ووضعها على الطاولة.

خرج دون أن يتكلّم.

بعد ساعة، دخل رئيس القسم إلى الإدارة العامة وهو يشرب قهوته. توجه نحو مكتب الرئيس الإداري...

-سيدي، لدينا حالة انسحاب غير مبررة. المهندس سامي. من نخبة الكفاءات.

ترك مكتبه وغادر المبنى.

رفع الرئيس الاداري الأعلى عينيه من تقرير الأداء وسأل بهدوء:

-هل من سبب واضح؟

-ليس بعد. لكنني فتحت سجل نشاطه. يبدو أنه كان يعمل على ملف "ميرا ن. ف."... سيدي، يبدو أنها أخته.

ساد الصمت بينهما.

قال المدير الأعلى ببطء:

-فهمت.

أغلق الحاسوب أمامه، وأشار له بالجلوس.

-نحن نواجه خطراً جديدًا، أخطر من التمرد العلني. إنهم الآن يشعرون بالتعارض الداخلي. بين عملهم في نظام النجوم... وروابطهم البشرية.

أجابه رئيس القسم:

-نعم، سيدي. لهذا السبب أرى أننا بحاجة إلى حل جذري.

-تفضل.

-اما أن نوظف فقط أفرادًا بلا أسر...أناس منبوذين. أو أن نُدخل عائلاتهم معنا في المنظومة. نمنحهم سكنًا داخل الأبراج. تعليمًا خاصًا. رواتب رمزية مقابل الولاء. يعني تصبح العائلة كلها جزءًا من نظام النجوم. فلا تعارض، ولا خيانة.

أومأ المدير الأعلى ببطء.

-مشروع الولاء الجماعي... لطالما فكرت فيه. سأدرس الامر.

ثم نهض، وتوجّه إلى النافذة الشفافة حيث ظهرت أضواء المدينة تتلألأ. نظر طويلا، أحس أن هذا الشرخ ليس الوحيد، أحس أن منظومة التألق والنجومية لم تعد صلبة كما كانت في الماضي.

الهجرة

في البداية، كان الأمر يبدو كاستثناء صغير.

طفلان انسحبا من مركز التنمية النجمية الأولى، بحجة المرض.

ثم فتاة توقفت عن الحضور، قالت إنها مسافرة.

لكن ما لبثت الأعداد أن بدأت تتزايد.

أسبوعًا بعد أسبوع، بدأت الفصول المدرسية تفرغ.

حتى المعلمات بدأن يتساءلن:

هل يُعقل أن يكونوا جميعًا مرضى؟

أم أن هناك ما لا نفهمه؟

الحقيقة كانت أكبر من التوقعات:

الأطفال يهربون إلى الأرض الجديدة.

عرفان، ومعه مجموعة من أصدقائه ، بدأوا في إنشاء نقاط لقاء في أطراف المدينة. هناك، لا توجد شاشات ولا مراقبة. في هذه النقاط هناك ورشات للزراعة، للموسيقى، للبحث في علوم الطبيعة، للرسم، للحِرَف اليدوية، الخ.

كانوا يتعلّمون كيف يُصلحون التربة الملوّثة، كيف يُعيدون تدوير النفايات، كيف يصنعون تكنولوجيا ذكية واعية، ويتعلمون ايضا مهارات حياتية، مثلا كيف يُصغون لبعضهم البعض دون مقاطعة و يقومون بنقاش بناء، دون تضخم الذات. هذه المهارات تصنع الفارق فعلا. تعطي قوة كبيرة للمجموعة، ذكاء جماعي تعاوني يصنع المعجزات.

وكل طفل جديد، كان يأتي معه بشيء جديد:

معرفة جديدة او فكرة اختراع جديد.

ومع مرور الشهور، لم تعد هذه "النقاط" مجرد أماكن لقاء بل بدأت تتحوّل إلى قرى صغيرة... ثم إلى مجتمع مستقلّ.

أطلقوا على هذه الأرض الجديدة اسم "أرض البذور" لأن كل شيء فيها يُزرع من جديد، الافكار و الارض.

كانت هناك زراعة عضوية تحترم الأرض والكائنات الحية، كان هناك بناء مختلف للعلاقات البشرية، اقتصاد جديد ايضا.

كانت هناك سوق أسبوعية تتبادل فيها المنتجات بما يُسمّى "نقاط التعاون".

كل من يساهم في حياة المجموعة (يساعد في الزراعة، في تنظيف البحر، أو إصلاح طريق، أو تعليم طفل...) يحصل على نقاط ويُبادلها لاحقًا بما يحتاجه.

ليس هناك ربح او خسارة. لا أحد يريد تكديس الثروات او السيطرة عليها. كل شيء كان يخدم الحياة بكل بساطة.

وبينما كانت "أرض البذور" تنمو، كانت "أرض النجوم" تذبل.

المراكز النجمية أصبحت شبه خاوية.

المستشفيات مكتظة بأمراض جديدة لا تُعرف أسبابها رسميا لكن اغلب الظن انها ناتجة عن النفايات الكيميائية المتراكمة. الهواء خانق، والماء شحيح، والأسماك لم تعد تظهر حتى ميتة.

الاطفال و الشباب ،الذين لم يدخلوا المعسكر بعد، كانوا يرحلون و يدخلون ارض البذور افواجا افواجا. لكن الكثير من كبار السن ظلّوا هناك رغم كل شيء.

يجلسون أمام الشاشات، يتلقّون آخر تعليمات النجوم.

يضعون صور أطفالهم القديمة لابسين الزي الرمادي و النجوم المتألقة ويقولون لبعضهم:

-سنعود للزمن الجميل يوما ما.

رفضوا الخروج.

كانوا يعرفون الحقيقة و لكن لا يجرؤون على مواجهتها.

فهموا أن كل ما عاشوا من أجله كان سرابًا...

لكن الاعتراف بذلك، كان أكثر ألمًا من استمرار الخداع.

وفي أرض البذور كانت الحياة الجديدة تتطور كل يوم بقيادة عرفان، هذا الفتى الذي كان يسمى متأخرا ذهنيا في أرض النجوم، اصبح صانع المعجزات.

ذاع صيته في أرض النجوم كصانع المعجزات، و صارت ريح التغيير تهب أكثر فأكثر.

معسكر الرجال ينتفض

نسمات التغيير وصلت الى معسكر الرجال ايضا. في إحدى الليالي، بعد انتهاء "طقوس الرجولة"، جلس جهاد وإياد مع رجال آخرين في زاوية مظلمة من المعسكر، بعيدًا عن الكاميرات.

قال إياد بصوت منخفض:

-هل فكّرتم يومًا في المعنى الحقيقي لما نقوم به هنا؟

نظر إليه جهاد:

-انا أعمل منذ سنوات. اعمل من اجل ابني و زوجتي و لكني احس اني كالفأر في المصيدة. و لا اريد ان يكون هذا مصير ابني.

أضاف، وهو يُخرج ورقة قديمة من تحت قميصه:

-قرأت شيئًا سرّيًا. قيل إن هذه المعسكر الذي نعمل فيه ليس عاديا. إنه مصنع ضخم للأسلحة الكيميائية، ومركز تصنيع للعقاقير التي تُستخدم للسيطرة على العقول. نحن نصنع عبودية شعبنا بأيدينا، هل فهمتم؟!.

سكتوا.

ثم تنهد إياد:

- الى متى سنعيش هكذا؟

قال جهاد:

-أحيانًا أسمع حديثا في الليل. عن أرضٍ أخرى... تُدعى "أرض البذور".

انتبه بقية الرجال، يريدون ان يعرفوا ما يحصل بالضبط.

تابع جهاد:

-يقولون إنها أرض بلا نجوم، بلا سباقات، بلا شاشات. يقولون ان القائد هناك كان طفلا منبوذا في أرض النجوم و هاجر و تبعه الكثيرون. الناس هناك يزرعون طعامهم، يعيشون في سلام، يعملون في المجالات التي يُحبّونها. توجد وفرة في كل شيء وتكنولوجيا خضراء ذكية تساعد الجميع، ولا تسيطر على أحد.

قال رجل آخر:

-وهل تظن أنه بإمكاننا الوصول إليها؟

رد إياد:

-و لم لا! يجب ان نتأكد من الأمر اولا. سأتحدث في الموضوع مع زوجتي في الزيارة القادمة.

قال جهاد:

-احذر من الحراس، إن سمعوك تتحدث عن هذا....

رد إياد:

-اعلم. اعلم.

في تلك الليلة، لم يناموا، في قلب كل واحد منهم، بدأت بذرة صغيرة تنمو ...

ولادة شرارة

لاحظ القادة الذين يعملون في برج النجوم كل التغيرات التي حصلت والهجرة الصامتة الى ما يسمى الأرض الجديدة، و لكن عوض ان يتصدوا لهذه التغيرات كما كانوا يفعلون في السابق، اختاروا ان لا يعطوا أهمية لهذه الموجة، ظنا منهم انها عابرة و خاصة ان هؤلاء المهاجرين سيلقون حتفهم عاجلا ام آجلا، لأنه ليس لديهم خبرة في الحياة المستقلة.

قرر القادة النجوم وعلى رأسهم القائد الأعلى ان يركزوا جهودهم على الاستراتيجيات الداخلية، و بالتحديد على الموسيقى النجمية و الضحك النجمي المصطنع، و الحفلات التي تشغل العقول و تشتت الانتباه و خاصة تعزيز العامل "د".

في الطابق العلوي من برج المقرّرين، انعقد اجتماع تحت أضواء خافتة. جلس القائد العام على كرسيه الأسود الفخم، وأمامه شاشة عملاقة تعرض أرقاماً ضخمة مرفقة بصور نجوم موسيقى، ومؤثرات ضوئية، وخطط لحفلات راقصة جماعية.

قال أحد المستشارين، وهو يشير إلى الميزانية:

– لقد خصّصنا مئتي مليون نجم لاستضافة أبرز الفنانين، مع عروض ثلاثية الأبعاد وتوزيع مجاني للبطاقات الإلكترونية. الحفلة الكبرى ستكون على الشاطئ، في نفس الأسبوع الذي يُحتفل فيه بيوم "الوعي البيئي".

ضحك القائد العام :

—— ممتاز! نلهيهم بالموسيقى والرقص ويظنون أنهم يحتفلون بالأرض.

لكن فجأة، رفع مهندس شاب يده وقال بتردد:

–سيدي... أليس من الأجدى أن تُوجَّه هذه الميزانية لتنظيف الشاطئ نفسه؟ أو لتحديث محطات الطاقة القديمة بأخرى صديقة للبيئة؟ الوضع البيئي يزداد سوءًا، والتلوث البلاستيكي بلغ حدًا خطيرًا...

التفت القائد العام ببطء، وحدّق في الشاب بنظرة حادة، وقال بصوت بارد:

–من الذي سمح لك بدخول هذا الفريق؟

تردّد أحد الحاضرين، ثم قال:

-إنه ضمن فريقي سيدي، إنه من خريجي المدرسة النموذجية للنجوم، دفعة التميز... ظننا أنه سيكون مفيدًا في قسم التطوير.

نظر القائد نحو الشاشة الصغيرة بجانبه، وضغط على زر أظهر ملف الشاب. بدأ يتصفحه بعين خبيرة. فجأة، توقف عند فقرة:

"الإسم كريم ج.د.، يحب القراءة، خاصة كتب الطبيعة والحيوانات. شاهد وثائقيات عن الحياة البرية. شارك في نادي بيئي أثناء الطفولة.

نظر إلى مساعده وقال بنبرة حاسمة:

-ها هو السبب. هذا الفتى لم يُبرمج بشكل كامل، لقد تسربت إلى دماغه افكار عن الطبيعة... وهذا يكفي لإحداث خلل في ولائه.

طأطأ المساعد رأسه قائلا:

-بالفعل سيدي القائد، بالفعل، حصل خطأ في اختيار هذا الشاب.

أجاب القائد:-من الآن فصاعدًا، لا نقبل أي عنصر قبل دراسة كاملة لتاريخه الطفولي. من قرأ كتب الحيوانات، من يحب الطبيعة، من زرع يوما شجرة هو خطر محتمل.

هزّ المساعد رأسه بتوتر، و دوّن الملاحظات بسرعة.

أضاف القائد:

-نحن لا نحارب فقط الطبيعة، نحن نحارب الحنين إليها أيضا. لا نريد ان يتذكّر الناس البحر كما كان، أو الغابة كما يجب أن تكون. نريد جيلاً لا يعرف من العالم إلا ما نعرضه له على الشاشات.

ثم التفت إلى المهندس الشاب، وقال ببرود:

-سيتم نقلك إلى قسم المؤثرات البصرية، أتمنى ان تثبت كفاءتك هناك.

قال الشاب:

-نعم سيدي.

لم يفهم كريم ما حصل في ذلك اليوم، لم يسمع الحوار الذي دار بين القائد الأعلى و مساعده، لكنه احس ان امرا ما ليس على ما يرام. انتهى الاجتماع، وبدأ الحاضرون يغادرون، يتهامسون فيما بينهم. لكن في عيني الشاب، رغم الصدمة، وُلدت شرارة.

الفصل التاسع

الثورة

شرارة لا تنطفئ

في الطابق السفلي من برج المقرّرين، حيث تُخزَّن ملفات العروض الرقمية والمؤثرات البصرية، جلس كريم، المهندس الشاب، وحيدًا أمام شاشته، يحدّق في بحر من الألوان الاصطناعية، وأصوات مكرّرة تُبرمج لتُبهر الحواس... وتُغلق العقل.

تم نقله إلى هذا القسم كعقوبة ناعمة بدون فصل مباشر او توبيخ علني. فقط إغراق في العدم، لكن شيئًا ما بداخله اشتعل منذ تلك الحادثة، ولم ينطفئ.

كلما برمج تأثيرًا ضوئيًا لحفل قادم، تذكّر ضوء الشمس الحقيقي وهو يخترق أوراق الشجر في الغابة التي كان يزورها صغيرًا.

كلما أضاف صوتًا إلكترونيًا للموسيقى، تذكّر تغريد الطيور عند الفجر، حين كان يصحو مبكرًا ليراقب أعشاش الطيور. في إحدى الليالي، وبينما كان يعمل على مشهد افتراضي لحفلة راقصة على البحر، أوقف التشغيل فجأة وقال لنفسه:

-هذا ليس البحر... البحر لا يشبه هذه الصور الملوّنة المزيفة.

فتح مجلده القديم، حيث كان يُخزن صورًا التقطها في صغره. ظهرت أمامه صورة لشاطئ رملي مهجور، وصورة أخرى لطفلة صغيرة تُطلق سلحفاة نحو الماء.

شعر بشيء يتحرّك في صدره. شيء حقيقي. شيء نسيه منذ زمن طويل.

ومنذ تلك الليلة، بدأ يُخفي رسائل سرّية داخل العروض البصرية. لم يكن أحد يلاحظها، لكنها كانت موجودة:

وميض سريع لصورة نبتة تنمو.

ظل طائر يطير خلف المؤثرات.

تسجيل لصوت الريح الحقيقية، بين طبقات الموسيقى الإلكترونية.

كانت مقاومة صامتة. خيطًا من الحقيقة في نسيج الزيف.

وفي استراحته، كان يكتب، كان يحب الكتابة منذ صغره:

"الضوء الحقيقي لا يُبرمج. والماء لا يقبل الفوتوشوب. حين تنطفئ الأضواء المصطنعة... ربما سيتذكّر الناس كيف كانت الحياة".

كان يزرع بذور الأرض الجديدة دون ان يعلم.

الحياة ليست عرضًا

في الغد، جلست اميرة، فتاة في السادسة عشرة، مع صديقتها في قاعة العرض المركزية حيث يُبثّ يوميًا مشهد ضوئي ثلاثي الأبعاد، يتكرر بصوره المبهرة وموسيقاه الإيقاعية. كان الناس يحبون هذه العروض، يصفقون طويلا في النهاية. الكلّ يشعر بنشوة عارمة مؤقتة، تُسمى في تقارير النظام: "الرضا الجماهيري".

لكن هذه المرة، شيء ما كان مختلفا في العرض الذي يشرف عليه المهندس كريم.

بينما كانت المؤثرات تلمع فوق مشهد البحر، ولمعان النجوم الوهمية يملأ السماء، ظهرت صورة لم تستمر أكثر من ثانية واحدة.

صورة ورقة خضراء. نبتة حقيقية، مبلّلة بندى الصباح. كانت مختلفة عن كل شيء آخر. لم تكن مشعة، لم تكن مفلترة، كانت هادئة وصادقة.

رفعت أميرة رأسها فجأة، ولم تصفق مثل الجميع. قلبها خفق.

-هل رأيتِ ذلك؟ قالت لصديقتها.

-ماذا؟ العرض كان رائعًا كالعادة.

-لا... ظهرت صورة لم تكن جزءًا من العرض.

عادت أميرة إلى المنزل و هي تشعر بحاجة غريبة للبحث، فتحت جهازها. دخلت أرشيف العروض. أبطأت المشهد. راقبت الإطار تلو الآخر.

ثم، في لحظة، توقفت الصورة. نعم. إنها هناك. النبتة.

وجلست تحدّق فيها. طويلاً.

وسمعت تسجيلا، لم يكن واضحًا، كان يقول:

"الحياة ليست عرضًا."

تجمدت. قلبها بدأ يدق بسرعة.

من الذي وضع هذه الصورة و هذا التسجيل؟

وكيف نجا من الرقابة؟

ترى هل الثورة و الهجرة التي يتحدثون عنها حقيقية؟

ما الذي يحدث؟

قادمون

لم تستطع أميرة النوم تلك الليلة. صورة الورقة الخضراء لا تغادر ذهنها.

في اليوم التالي، ذهبت إلى مركز أرشيف المؤثرات البصرية تحت ذريعة مشروع دراسي. طلبت إذنًا مؤقتًا للوصول إلى البيانات الخام للعروض الأخيرة. لم يكن ذلك سهلًا، لكنّ ملامحها الهادئة والمثالية ساعدتها. فهي من الطالبات المِصنّفات بالنموذجية.

جلست أمام الشاشة، وبدأت تبحث.

وفي زوايا ملف العرض رقم 3380، وجدت اسمًا تقنيًا صغيرًا في خانة التعديل الأخير:

7"6"U.km

تردّدت... ثم قالت:

- كريم؟

بدأت تحقق أكثر. بحثت في قاعدة البيانات. لا شيء رسمي. فقط مهندس تم نقله مؤخرًا من قسم التطوير إلى قسم المؤثرات البصرية. لكن شيئًا ما جعلها تتأمل هذا الاسم طويلاً.

واصلت البحث حتى عثرت على رمز غريب مرفق بكلمة سر:

"Turtle_Code_1"

ضغطت عليه، فانفتحت نافذة سوداء، وظهرت فيها جملة:

"إذا كنت ترى النبتة... فأنت لست وحدك. نحن جمعية السلحفاة الصغيرة. نتحرك ببطء... ولكن بثبات. تعال معنا الى الأرض الجديدة"

ثم ظهرت مجموعة ارقام تحدد مكان اللقاء للذهاب إلى أرض البذور ثم اختفى كل شيء.

جلست أميرة مشدوهة. قلبها ينبض بسرعة. اذا ليست اشاعة، ارض البذور موجودة فعلا، حياة أخرى ممكنة فعلا.

وفي الطرف الآخر من المدينة، كان كريم يراقب من شاشة سرّية وصول أول محاولة ناجحة لفتح الشيفرة. ابتسم بهدوء، وقال:

– لقد وصلت أول بذرة.

فتح ملفًا خاصًا بعنوان: "خطة الانتقال – الأرض الجديدة"

وفي داخله، صورة شاب يُدعى عرفان، يحمل خريطة، وعيناه تحدقان في الأفق.

قال كريم و هو يرسل الملف المشفر لينشره عبر الشبكة:

- قادمون... خطوة بخطوة.

الفصل العاشر

أرض البذور

حياة أخرى

في أرض البذور، كانت الحياة تبدأ كل صباح بإيقاع ناعم يشبه الريح التي تحرك الاغصان و تجعلها ترقص مع كل كائنات الأرض في سمفونية عذبة تحرك القلوب النابضة بالحياة.

لا وجود للضجيج في أرض البذور، لا شاشات و لا كاميرات مراقبة و لا تقييمات و لا جدران إسمنتية باردة.

كانت حياة أخرى مختلفة تماما.

كانت الشوارع كبيرة ونظيفة، مزيّنة برسومات الأطفال و روائح طيبة تنبعث من الازهار الموجودة في كل مكان. كل المباني مصممة بطريقة ذكية صديقة للبيئة، تغطيها الاغصان و النباتات المختلفة.

الناس لا يركضون. لا يسابقون الزمن كما كانوا في أرض النجوم، بل يعيشون بهدوء، يبتسمون لبعضهم، يتوقفون لتبادل الابتسامة و السلام، ويتعاونون كأنهم نسيج واحد.

في أرض البذور، لم يعد الإنسان يعمل لجمع النجوم، ليأكل أو ليدفع فواتير، تم تطوير تطبيقات و خوارزميات تشاركية تنظم العمل حسب رغبة الأفراد وقدراتهم.

تطورت التكنولوجيا الى حد أن العمل لم يعد واجبًا بل اختيارا و متعة. و كان الناس يعملون أكثر بكثير مما كانوا عليه في أرض النجوم.

كل فرد يختار ما يحبه: من يرغب في الزراعة، يزرع. من يحب البرمجة، يُبدع في تطوير التطبيقات. من يحب رعاية الآخرين، يتفرغ للأطفال والمسنين. لا أجر، لا أرباح، لا صفقات... فقط مشاركة و خلق و تطوير.

في الصباح، يعمل الجميع في الحقول، في الأسطح، في الباحات، في الحدائق العامة. هناك زراعة عضوية في كل مكان، بلا مبيدات، بلا آلات ضخمة بل باستعمال تكنولوجيا دقيقة تكاد تكون غير مرئية. كل ما يُزرع، يُوزّع لاحقًا في سوق المشاركة. وكل من يزرع يحصل على حصته.

ومن لم يقدر على المساهمة في الزراعة يساهم في الحياة الجماعية و في الإنتاج او التطوير التكنولوجي بطريقة او بأخرى.

أما بعد الظهر، فالجميع يتفرغ لهوايته، رياضة او فن، الكثيرون يلعبون الكرة، البعض يشارك في عروض تمثيلية في الساحة، الأطفال يلوّنون جدران البيوت والكثير من الشباب في حلقات حوار مفتوحة.

اجساد حرة

كل مساء، ترى في الشوارع أجسادا تتحرك برشاقة، كأنها نسائم حرة تُنصت لصوت داخلي عميق.

الابتسامة تعلو وجوههم في كل مكان: يبتسمون لبعضهم البعض دون أن يعرفوا بعضهم شخصيا، فالكل هنا يحس انه ينتمي لجسد واحد، مجتمع متكامل متعاون و كأنه نسيج حي يتفاعل مع بعضه البعض في سلام و محبة لأنه واع بوحدته. اندثرت تماما عقلية التنافس السائدة في أرض النجوم و صارت فلسفة الحياة مبنية على التعاون و التكامل.

أرواح حرة في اجساد تحررت من عبودية النجوم.

وكان الرقص الحر من أهم الطقوس اليومية التي ساهمت في تحرير هذه الأجساد.

كانت الرقصات الحرة اليومية جزءًا لا يتجزأ من الحياة، الكل يرقص. يرقصون في الساحات، في الحدائق، فوق أسطح البيوت المغطاة بالأعشاب والنباتات.

لم تكن الرقصات مجرد فن أو ترفيه... بل كانت وسيلة شفاء.

طريقة طبيعية لتحرير المشاعر المكبوتة، وإعادة توازن الطاقة داخل الجسد.

كان هناك تمرين يومي يمارسه الجميع في الصباح، عند الظهر و في المساء ايضا. حركات بطيئة متناغمة تُفتح بها القنوات الداخلية للطاقة، وتُنقّى بها الذكريات، ويُشحذ بها الذكاء الجسدي.

وفي المساء، كانت تُضاء الفوانيس المصنوعة من أوراق الشمع، ويجتمع الناس في الساحات يعزفون موسيقى على آلات خشبية، ثم تبدأ الأجساد في الرقص... ليس رقصًا تقنيًا ممنهجا، بل رقصًا ينبع من القلب و يطهر الأجساد من تراكمات أرض النجوم.

البعض يرقص باكيًا، وآخرون يضحكون. البعض يدور في دوائر كأنما يبحث عن نقطة توازن كونية.

كان المشهد أشبه بسمفونية من الحركات، لا أحد يُراقب أحدًا، ولا أحد يُقارن نفسه بأحد... فقط حرية، وانسجام تام مع الذات.

هذا الرقص الحر يُنشّط مسارات عصبية دقيقة، ويُحرّر هرمونات السعادة، ويُعزّز الإبداع، يُحرك الطاقة الحيوية، يُعزز المناعة ويُوقظ الحدس. بكل بساطة يُعيد ربط الإنسان بنفسه وبالآخرين.

ومنذ أن أصبح الرقص الحر و الأكل الطبيعي جزءًا من طقوس الحياة اليومية، اختفت الأمراض، وارتفعت معدلات الذكاء، وانخفضت مشاعر الغضب والتوتر.

في الجهة الأخرى...

وفي الجهة الأخرى، على أرض النجوم... بقي الناس محبوسين خلف الشاشات، يلهثون خلف النجوم الإلكترونية، جالسون طوال اليوم بلا حراك، عيونهم منهكة وأرواحهم خامدة...

و تواصلت الشائعاتٌ تتسلل و تنتشر بصمت:

-هل سمعتَ؟ في أرض البذور، لا يرتدون المعاطف الرمادية الباهتة مثلنا... بل يلبسون ألوانًا زاهية، كل شخص بثوبه المختلف!

-يقال إنهم يرقصون في الشوارع! نعم، يرقصون و يغنون!

أخبار أرض البذور كانت تشبه الخيال، تثير الفضول و التأويلات المختلفة لكن الخوف مازال مسيطرا على أغلبية سكان أرض النجوم.

تنتشر الاخبار خاصة بين الأطفال و الشباب الذين يتوقون للحركة... بالفعل، في أرض النجوم، كان الجمود الجسدي هو القاعدة: ساعات طويلة خلف الشاشات، جلوس بلا حراك، عمل رقمي ... أجسادٌ متيبّسة و عقول متحجرة.

وفي ظل هذه الحياة المبرمَجة، ظهرت فكرة ان الرقص ليس فقط حركة، بل مقاومة.

فهم الناس أنّ الجمود الجسدي يجرّ وراءه جمودًا فكريًا، وجمودًا عاطفيًا و أن الجسد، حين لا يتحرك، لا يفرز هرمونات الفرح، بل هرمونات التشنج و الخوف.

بعض المعلمين لاحظوا هذا التمرد الصامت، فرفعوا التقارير للجهات العليا، لكن الفكرة كانت قد بدأت تنمو و تنتشر كالنار في الهشيم.

في أحد الأقبية في مدرسة النخبة، اجتمع خمسة مراهقين. أطفأوا الأضواء، وشغّلوا تسجيلًا مُهرّبًا من أرض البذور... موسيقى غريبة، ناعمة ومجنونة في نفس الوقت. موسيقى حية مختلفة تماما عن الموسيقى النجمية.

وبدأت الأرجل تهتز، والكتفان يتمايلان...

وقفت لبنى و دارت حول نفسها في حركة فريدة.

رقصت وكأنها تكسر جدرانًا بداخلها، وكأنها تقول للعالم: "أنا لست آلةً لجمع النجوم! أنا كائن حي!"

كلما كان الشباب يمارسون الرقص الحر، كلما ازداد حماسهم للذهاب الى أرض البذور، كلما احسوا أن الحياة الأخرى ممكنة.

و هكذا أصبح الرقص بذرة اخرى للحرية في أرض النجوم التي عرفت نزوحا متواصلا نحو أرض البذور، رغم كل الإجراءات التي يتخذها قادة النجوم للتضييق على الناس.

و أشرقت الأرض بنور ربها

في أرض البذور، في الأحياء الجديدة المزروعة بالخضرة، كان الأطفال يلعبون تحت أشعة الشمس، بأقدام حافية، ووجوه تلمع بالحياة. كان الأطفال في قمة السعادة و هم يركضون و يلعبون بكل حرية. و تأثير أشعة الشمس على توازنهم النفسي كان كبيرا.

في هذه الأحياء الجديدة لم تكن هناك معسكرات تنفث الغازات السامة في الجو كما هو الحال في أرض النجوم. و هكذا عادت أشعة الشمس تخترق السماء، عادت الحياة الى الأرض و نما الزرع من جديد، و عادت الأمطار و كأن الطبيعة غفرت ما فعله البعض و قررت ان تعطي سكان أرض البذور فرصة جديدة.

هذه الفرصة منحت لكل الناس الذي يحملون نية صادقة، يعملون دون انتظار مقابل من أحد، يعملون لانهم فعلا يريدون حياة اخرى، أرضا جديدة يزرعون بذورها بأيديهم.

كل صباح، تخرج مريم، ليلى، والدة عرفان، وعدد من الأمهات المهاجرات و الأطفال و الشباب الى الحقول. في الماضي، كانت هذه

الأرض جافة، متشققة، تُستخدم كمكان لتخزين الحاويات البلاستيكية القديمة.

لكن في عيونهم كانت الجنة. يخرجون معاول بسيطة، وبعض البذور التي خبأها أحدهم لسنوات و يحفرون.

رفضت المجموعة استلام أكياس الطعام البلاستيكية التي يوزعها النظام.

أعلنوا بكل شجاعة :

-لن نأكل شيئًا لا نعرف من أين أتى، لن نُطعم أبناءنا عجينا بلاستيكيا. سننتظر محصولنا. ستطعمنا ارضنا الجديدة.

بدأت المبادرة تتوسع. على أسطح بعض المباني، ظهرت صناديق خشبية مليئة بالتراب والبذور.

في زوايا البيوت، بدأ الأطفال يروون الزرع بمياه الأمطار التي يجمعونها في أوعية قديمة.

كل هذه التحركات كانت تحت المراقبة السرية و لكن الهيئة العليا للنجوم لم ترى في ذلك خطرا.

في الاجتماع الاسبوعي داخل برج القادة النجوم، قال أحد الضباط:

-هناك إشارات متزايدة على امتناع بعض الأحياء البعيدة عن استلام الحصص الغذائية الرسمية.

سأله ضابط آخر ببرود:

-وماذا يأكلون؟

-بعضهم بدأ يزرع في الأسطح، في الزوايا، في أماكن مهجورة...

ضحك الضابط ساخرًا:

-زراعة؟ وسط الاسمنت و الخرسانة و الارض الجافة؟... دعهم يحلمون.

في نفس الوقت، في مكان آخر، على سطح أحد البيوت، كان هناك طفل صغير يقطف أول حبة طماطم زرعها بيده، وينظر لأمه بفخر:

-ماما، طعمها لذيذ للغاية !

رغم ان القادة النجوم لم يعيروا الامر اهتماما كبيرا، فإن التغيير الذي حصل في النظام الغذائي لشعب أرض البذور كان له أثر غير متوقع، ...ان يأكل الإنسان ما يزرع بيديه كان أمرا ثوريا بالنسبة للأطفال خاصة، فقد ارتفع مستوى الذكاء لديهم بشكل كبير.

مجتمع جديد

في أرض النجوم، لم يكن أحد يعرف كلمة "الانتخابات". ببساطة، هي لم تكن موجودة في القاموس اللغوي. فالحكم هناك لم يتغير منذ عقود. كان يُنقل من الأب إلى الابن ضمن العائلات التي تسكن ناطحات السحاب و لا تنزل الى الشوارع ابدا. يقال انهم حتى ان نزلوا الى الشوارع فيكونون متنكرين لابسين ازياء الشعب الرمادية حتى لا يتفطن إليهم احد. و كانوا هم الحكام، يتناقلون الحكم من جيل إلى آخر، دون أن يُسأل الناس عن رأيهم. لم يرَ الناس قادتهم إلا على شاشات الهواتف أو في اللوحات الضوئية الضخمة، يبتسمون دائماً ابتسامات مصطنعة، مرتدين نظارات ضخمة تحتوي على تكنولوجيا سرية، يكررون شعارات باردة، ويوزعون "النجوم".

لكن في أرض البذور، تكون فكر جديد و مجتمع جديد.

اجتمع السكان في ساحة مفتوحة، حيث نُصبت منصة بسيطة، وبدأ المرشحون في التقدم واحدًا تلو الآخر، كلٌ منهم يحمل رؤية، مشروع، ورغبة واضحة في خدمة المجتمع.

تقدّم رجل نحيل يُدعى جميل، كان قد عمل في الطب البديل لسنوات، وقال بصوت هادئ:

-انا اريد ان ابعث مركزا صحيا يعتمد أعشاب الشفاء بدلًا من استيراد الأدوية. لدينا خيرات كثيرة في هذه الأرض و اريد تطويرها باستعمال التكنولوجيا الحديثة. هذه الاعشاب كنز حقيقي و يجب ان نستغله بطريقة ذكية.

صفّق الناس بحرارة. ثم تقدمت سُهى، وهي شابة تعمل في مجال الطاقة الشمسية:

-أريد أن أطور نظامنا الطاقي أكثر فأكثر. أن نُعلّم الأطفال كيفية الاستفادة من الشمس والرياح والمياه... لا نريد أن نبقى تحت رحمة تقنيات لا نُنتجها ولا نفهمها.

كل هؤلاء المرشحين، لم يطلبوا أجرًا. بل قالوا إن خدمتهم شرف. وإنهم سيعيشون مثل الجميع، في بيوت عادية، يأكلون من نفس الطعام، ويشاركون في الأعمال اليومية، من زراعة وتنظيف وصيانة.

وفي نهاية اليوم، صوّت الناس باستعمال التكنولوجيا التي طورها المهندسون في أرض البذور. و هكذا كانت هناك مشاريع يقودها أشخاص معينون لفترة معينة. لم يعد هناك نظام حكم علوي مسيطر على الجميع. يستطيع الناس، في كل وقت، اقتراح مشروع معين يطور المجتمع، في أي مجال من المجالات، و يتم التصويت للقائم على هذا المشروع.

وكان من الشروط الأساسية أن يقدم كل مسؤول تقريرًا شهريًا علنيًا، ويستقبل أسئلة الناس مباشرة، ومن لا ينجح في أداء مهامه أو يخالف قيم الشفافية والاحترام، يُطلب منه الاستقالة فورًا، ليفسح المجال لغيره.

كانت هذه التجربة فريدة من نوعها، تجربة افرزت وعيا و رابطا اجتماعيا قويا. هكذا بدأت الحياة الجماعية تتأسس بطريقة مختلفة في أرض البذور... لا وجود لسلطة علوية، لا وجود لحكم فوقي، بل جسر من الثقة والمسؤولية المتبادلة يمتد بين افراد هذا المجتمع الجديد.

هذا الجسر متين جدا بفضل دائرة الحكماء التي تتكون من خيرة العلماء، و المربين، و الفلاسفة، و كل العاملين في مجتمع البذور.

الذكاء الجماعي

في أرض البذور لم تكن الحياة تُدار عبر أوامر تصدر من مراكز عليا مجهولة. بل كانت تُدار حسب قوانين بسيطة تقدم دائما الصالح العام و الانسجام مع قوى الطبيعة. ليس هناك تعقيد في اي شيء، و كل فرد من أفراد مجتمع البذور يحمل بذور الوعي الجماعي، وينمو داخل كل إنسان شعور عميق بالمسؤولية المشتركة.

يسمّى هذا النمط من التفكير الذكاء الجماعي، نوع من الذكاء لا يسعى للتفوق على الآخر، بل للاتحاد معه. كل فرد يشعر بأنه خلية في جسد واحد، وأن أي ضرر يصيب جزءًا منه، يصيب الكل.

بالضبط مثل الذكاء الذي يتمتع به النحل أو النمل.

لم تكن هناك مناصب ولا رتب. بل كانت هناك دوائر من الحكماء تتشكّل بشكل طبيعي في كل مجال:

دائرة المهندسين الذين وجدوا طرقًا لاستغلال الطاقة المتجددة من الشمس و الريح دون إيذاء الأرض. الطاقة اصبحت متوفرة لكل الناس مجانيا و بدون حدود. و قد تطورت الحياة بطريقة غير مسبوقة بفضل

هذه الطاقة المجانية.

دائرة الأطباء الذين جمعوا بين الحكمة القديمة والتكنولوجيا الحديثة لعلاج الناس بأقل تدخل وأكبر انسجام طبيعي، إضافة إلى التكنولوجيا المتطورة و الذكاء الاصطناعي الذي صار يوفر المعلومة و الرعاية الصحية المجانية لكل الناس.

دائرة الزراع الذين جعلوا من كل حيّ حديقة، ومن كل سطح مزرعة. صار الغذاء الصحي البيولوجي متوفرا على أوسع نطاق، وفرة لم تعهدها الإنسانية من قبل، و ظهرت انواع اخرى من الغلال و الخضر التي لم تعرفها البشرية من قبل.

دائرة المعلمين و هي من أهم الدوائر. المعلمون لهم دور محوري في أرض البذور فهم يزرعون القيم و الأخلاق العالية ، اولا، في الأطفال، ثم شغف التعلّم الذاتي المستمر للصالح العام.

هذه الدوائر لم تكن منتخبة ولا مُعيّنة. بل كانت تُشكَّل بناءً على ما تسجله الشبكة العصبية الذكية التي طوّرها العلماء في بداية تأسيس الأرض الجديدة.

شبكةٌ تعمل بتناغم مع وعي الإنسان، وتقرأ مستوى انخراطه الحقيقي في خدمة المجتمع، نيّته، استعداده للعطاء، وقدرته على الإبداع الجماعي.

لم تكن هناك نجوم كما في العالم القديم، بل كانت هناك بصمات نورانية، لا تُرى بالعين المجردة، ولكن تُقاس من خلال حسّ داخلي موجود في كل إنسان: حسّ يميّز الصادق من المتظاهر، المخلص من المستغِل.

التكنولوجيا لم تكن أداة هيمنة، بل أداة تنظيم وتسهيل. كان الذكاء الاصطناعي جزءًا من النظام، و كان مبرمجا على مبدأ واحد:

"أنفعكم للناس... أنفعكم للأرض."

حجر المعرفة

كبر عرفان. خَطَّ الشيبُ بعضَ خصلات شعره. وجهه بقي صافيًا، مبتسمًا، كما لو أن الحياة اختارت أن تنعكس فيه.

بنى بيتًا من الخشب يزرع حوله النعناع والخزامى وشجر التين.

كان كل صباح يبدأ بقهوة و غلال موسمية، نزهة قصيرة في الحديقة، ثم جلسة تفكير إبداعي مع أفراد دائرة الحكماء. لم تكن الحياة هناك بدائية، بل مُختارة. لم يرفضوا التكنولوجيا، بل أعادوا لها معناها.

في أرض البذور لم يكن هناك هواتف ذكية كما في أرض النجوم، حيث الشاشات في كل مكان، والعيون معلّقة بأرقام ومؤشرات و نجوم زائفة. بل حمل كل فرد ذلك الحجر الصغير، سلس الشكل، يشبه البيضة او الحصى الملمّع: حجر المعرفة.

هو جهاز صغير، يبدو بسيطًا، لكنه بوابة إلى كل العلوم، كل التجارب، وكل الحوارات المفتوحة. ذكاء اصطناعي واعي و رشيد، يلازم كل انسان على الدوام و كأنه زوجه الرقمي الذي يمكنه من التواصل مع كل افراد المجموعة.

كان ابتكارًا جماعيًا، ثمرة شراكة بين مهندسين شباب، علماء وفلاسفة. لم يكن يُستخدم لجمع نجوم أو للمراقبة او التجسس، بل كأداة حكيمة: تُرشد، تُعلّم، تُساعد. كان يُستعمل للوصول إلى المعرفة، للتواصل الهادئ دون أغراض تجارية، للتنقل، لطلب المساعدة، وحتى للاستماع إلى الموسيقى أو التأمل. لم يكن يستهلك المستخدم، بل يخدمه.

وكانت شبكة الإنترنت في أرض البذور شبكة حرّة ومفتوحة المصدر، لا تجمّع البيانات، ولا تتجسس على العقول. كل عملية رقمية كانت موجَّهة نحو الخير العام، بشفافية تامة. الذكاء الاصطناعي، المدمج في حجر المعرفة، كان يُعلّم الأطفال، يساعد المزارعين، يُرشد البنّائين و العاملين في كل المجالات حسب الصالح العام. هكذا تمت برمجته منذ البداية، المجتمع البشري جسد واحد، ما يضر الفرد يضر المجتمع، يضر الجسد الأكبر. و ما يخدم الفرد يجب أن يخدم المجتمع كله، أو لا يكون مقبولا.

وعي الجسد الأكبر هو ما يجعل التكنولوجيا في أرض البذور حكيمة، عكس التكنولوجيا العقيمة المنتشرة في أرض النجوم. و كان تطوير هذا الوعي الجمعي امرا اساسيا في أرض البذور، خاصة بالنسبة للأطفال.

لم تُستخدم التكنولوجيا يومًا لتحقيق الربح، فلم يكن هناك مال او عملة نقدية اصلا في أرض البذور، بل كانت التكنولوجيا تستخدم للمساعدة و التطور، عن طريق حجر المعرفة الذي يمتلكه كل فرد من أفراد مجتمع البذور. إنها عقلية جديدة مختلفة تماما.

لم يكن أحد بحاجة أن يَحكم أو أن يُحكم. لأن الجميع اختار أن يخدم.

وهكذا، لم تكن أرض البذور يوتوبيا خيالية، بل ثمرة حقيقية لتحوّل داخلي جماعي. تحوّلٌ بدأ عندما قرر البشر أن يوقفوا التنافس وسباق النجوم، وبدأوا رحلة التطور الحقيقية.

ومع مرور الزمن، أخذ شعب أرض البذور في التوسّع، بالعدد، و لكن ايضا بالوعي، بالإبداع، والتكنولوجيا الحكيمة.

بالفعل، تقدّمت التكنولوجيا بشكل لم يسبق له مثيل، لكنها ظلّت في خدمة الإنسان والطبيعة معًا.

ارتفع معدّل العمر حتى تجاوز مئة سنة وتراجعت الأمراض حتى كادت تختفي، الوفرة لم تعد حلمًا، بل واقعًا مشتركًا.

في المقابل، بقيت أرض النجوم تدور في نفس الحلقة المغلقة:

المنافسة، الحرب النفسية، الفقر، التلوّث، الأمراض، ونظام هرمي لا يرحم.

لم تتوسّع أراضيهم، بل ضاقت، وزاد عدد من ينامون جائعين، أو ينبشون في القمامة بحثًا عن فتات طعام. الأدوية نادرة، والمستشفيات مكتظّة، والعلاج أصبح امتيازًا لأصحاب النجوم الكثيرة فقط.

ورغم هذه الكارثة، ظلت الطبقة الحاكمة توزّع السموم المغلفة بالسعادة: موسيقى صاخبة، فيديوهات سخيفة، تطبيقات جديدة... كلها لإلهاء العقول عن التفكير.وتستمر الصناعات الغذائية بتوزيع مأكولات مشبّعة بالمواد المسببة للإدمان العقلي، حتى صارت الأغلبية غير قادرة على التفكير أو التمييز، مجرد كائنات بدائية عقولها منكمشة، تُكافأ حين تطيع، وتُعاقب حين تفكّر.

نقاط الحياة

كان بيت عرفان، الذي يحتوي حديقة كبيرة، مفتوحا لكل الزوار، خاصة الأطفال. في زاوية الحديقة، جلس بعض الأطفال حول قطعة من الخشب، مرسومة فوقها دوائر ملونة، أشبه بلعبة جديدة.

سألتهم ليلى، والدة عرفان:

-ما هذه؟

ضحك آدم، وقال:

-هذه لعبتنا الجديدة... "نقاط الحياة"! كلما ساعدنا بعضنا، كلما زرعنا، كلما ضحكنا معًا... نحصل على نقطة.

سألته:

-هل تتذكرون النجوم؟ ألم تعد تعني لكم شيئًا؟

ضحكوا بصوت واحد و قالت طفلة صغيرة:

-النجوم؟ هاهاها... تلك كانت لعبة الكبار.

ثم قام أحدهم بإلصاق ورقة على الجدار، كُتب عليها قانون هذه اللعبة الجديدة:

حضن صادق = نقطة حياة

ضحكة حرة= نقطة حياة

نبتة جديدة= نقطة حياة

صديق جديد= نقطة حياة

كان الأطفال يقومون بذلك بكل عفوية، و لكن ما كتبوه كان بمثابة دستور جديد، للأرض الجديدة. جلست ليلى بينهم. شعرت بشيء عميق في قلبها. هؤلاء الأطفال... يبتكرون عالمًا جديدًا، لا تُقاس فيه القيمة بالتفوق على الآخرين و التنافس، بل بالتعاون و المحبة، حب الحياة و حب الآخرين لانهم أبناء نفس الحياة، نفس النبض الذي يسري في الكل .كان قلب ليلى كالنهر المتدفق حبا لكل هؤلاء الأطفال. ولكنها تفتقد مالك زوجها كثيرا. تتذكره كل صباح مع شروق الشمس، تتمنى ان يثور الرجال ايضا و ان يلحقوا بهم في هذه الأرض الجديدة. فلا أحد يستطيع أن يدخل هذه الجنة إلا إذا حطم قيوده بيديه. بنفسه.

الفصل الحادي عشر

نهاية المعسكرات

شرارة التمرّد

كان المعسكر رقم 17 من أكبر معسكرات العمل في أرض النجوم. رجال منهكون، وجوههم شاحبة، أعينهم زائغة من أثر الحبوب التي تُوزَّع كل صباح، تحت ذريعة دعم البروتين والطاقة. لكن الجميع يعلم أنها ليست سوى مزيجٍ من المهدئات والمنشطات العقلية المصممة خصيصًا لكبح التفكير الحر، وتثبيت الطاعة.

العمل يمتد لعشرين ساعة، لا وقت للراحة إلا أربع ساعات داخل غرف معدنية باردة، لا وجود للحلم... سوى الحلم بالفرار.

في هذه الليلة، في قسم الصيانة الميكانيكية، كان هناك مهندس شاب يتحدث مع اثنين من رفاقه. كان قد نجح في كسر شفرة واحدة من الطائرات الصغيرة التي تراقب العمال، واستطاع أن يتابع خريطة المراقبة حول أسوار المعسكر. كان الحوار متشنجا...

قال أحدهم :

– لكنهم يحقنوننا يوميًا... كيف سنصمد دون الحبوب؟

رد المهندس امين وهو ينظر في عيونهم:

– سمّهم هذا يمنعك من التفكير، لكنه لا يستطيع أن يمنع قلبك من الرفض. سنبدأ بالتوقف التدريجي. سنخزن الحبوب، لا نبتلعها. ثم إن بعض الأعشاب في قسم النفايات يمكنها المساعدة في طرد السموم. سوف احصل عليها في القريب العاجل. يجب ان نتحرك. لكن أين مالك؟

لم يرد احد...

في الأيام التالية، لم يعد البعض يبتلع الحبوب. آخرون كانوا يضعونها تحت ألسنتهم ثم يبصقونها في زوايا المراحيض. لم يعرف الحراس في البداية، لكن مع مرور الأيام، بدأت نظرات الرجال تتغير.

الكل يبحث عن مالك، هل هرب قبلهم؟ هل قتل؟ لا احد يعلم.

و جاءت الليلة الموعودة. كان ذلك في يوم العرض العام، حين يأتي المشرف الأعلى ويعرض إنجازات العمل على شاشة ضخمة. فجأة، انطفأت الأضواء. انطلقت شرارة كهربائية من قسم الصيانة، وتبعها انفجار صغير أربك الحراس، و انطلقت من داخل المعسكر صيحات مدوّية:

– "كفى عبودية!"

– "لسنا آلات!"

– "نحن بشر احرار... نريد أن نعيش!"

في لحظات معدودة، تحوّلت الفوضى إلى تنظيم، فقد كان كل شيء مخططًا بدقة منذ أسابيع. أقفال الأبواب تم تعطيلها، الطائرات الصغيرة تم التشويش عليها، وكل الرجال اندفعوا نحو بوابة الطوارئ التي لم تُستخدم من قبل.

أمين كان في المقدّمة، يحمل جهاز توجيه كان قد سرقه من مركز المراقبة. قال لهم وهو يركض:

– هيا، لا تلتفتوا ابدا الى الوراء، لا تخافوا، اتبعوني... إلى أرض البذور!

في فجر اليوم التالي، وعلى مشارف أرض البذور، كانت النساء يقفن مذهولات. لقد اعتقدن أن الرجال قد ماتوا في تلك المعسكرات، أو أنهم أصبحوا كائنات ميتة من الداخل.

لكنهم كانوا هناك متعبين، نحيفين، مليئين بالندوب، و عيونهم تشع بالأمل. كانت تلك لحظة ميلاد جديدة.

إعادة التوازن

بعد عودة الرجال، كان اهم شيء هو ادماجهم في هذا المجتمع الجديد و طريقة العيش الجديدة.

في الساحة الكبرى وسط أرض البذور، اجتمع الرجال الذين خرجوا منذ أيام فقط من معسكرات العمل. وجوههم تحمل آثار التعب، ولكن في عيونهم، شرارةُ بحثٍ جديد. كان الأطفال يركضون بينهم، والنساء يراقبن بصمت، كان هناك مزيج من الفرح والحذر.

دخل عرفان الساحة، يرافقه الحكماء، وإلى جانبه والدته ليلى، من أقدم الموجهات في المدرسة الروحية لأرض البذور. ليلى تحمل حزنا عميقا لأنها لا تعرف شيئًا عن زوجها مالك، و لكنها تحاول تخطي ذلك. أما عرفان فهو متأكد ان والده على قيد الحياة، رغم انه لا يعرف عنه شيئًا. وقفت ليلى أمام الجميع برداءها المخملي الابيض، وقالت بصوتها الهادئ العميق:

-أنتم لستم كما كنتم... لقد عبرتم من الظلام إلى النور، لكن أمامكم الآن رحلة جديدة، لا تقل أهمية عن الخروج من العبودية: رحلة التحرر من الداخل.

تقدّم أمين وقال بصوت عال و كأنه يتكلم نيابة عن الآخرين:

-نحن نظمنا الثورة من داخل المعسكر، كيف تقولين أننا ما زلنا غير أحرار؟ و من انت؟ من القائد هنا؟

أجابت ليلى بلطف:

– نعم يا أخي... أن تحمل حريتك في جسدك، و لكن هذا لا يعني أنك حر في روحك. لقد تربّيتم في معسكرات أرض النجوم على نموذج واحد للرجولة: السيطرة، القوة، الكبت، القمع... حتى مشاعركم كانت تُعتبر ضعفًا. يجب ان تتحروا من كل هذا لتدخلوا مجتمعنا و بيوتنا، و قلوبنا.

و للإجابة على الجزء الثاني من سؤالك...اقول لك فقط انا ليلى، انتمي الى دائرة الحكماء. هنا، ليس هناك قائد أعلى كما كان الأمر في أرض النجوم. هنا، نحن ننتخب دائرة حكماء بطريقة دورية حتى نقرر جميعًا مستقبل هذا الأرض الجديدة.

عرفان، ابني، كان الشرارة الأولى لهذه الثورة و للهجرة و البناء الجديد. عرفان، الذي كان طفلا مختلا، متأخرا ذهنيا حسب منظومة النجوم و التألق، كان القائد الفعلي لهذه الثورة. و لكنه تخلى عن منصب القيادة..

كانت ليلى تتكلم بكل طلاقة و بصوت جهوري جعل الناس يلتفون حولها، رجالا و نساء و أطفالا. نظرت إليهم بابتسامتها الدافئة المعهودة و واصلت:

-يا إخوتي، نحن نسيج حي، كل فرد منا هو بمثابة الخلية الحية التي تعيش وسط نسيج كامل متكامل. كلنا مختلفون، و متكاملون في نفس الوقت. لا أحد منا يملك بصمة تشبه الأخرى، كل فرد منا غني بفردانيته و اختلافه، و يجب ان يكون فخورا بفردانيته، محبوبا لذاته، محبا لذاته و للآخرين محبة غير مشروطة، و يعمل متى شاء و كيفما شاء لتطوير و تقدم مجتمعنا، يعمل للصالح العام، الذي هو الصالح الخاص في نفس الوقت، يعمل عملا صالحا و هو مؤمن و مسلم : يحقق الأمن و السلام بداخله و بخارجه، أي للناس من حوله. هذا هو مجتمعنا و هذا هو ميثاقنا و ديننا.

ثم أضاف عرفان:-يا إخوتي، الرجولة الحقيقية، ليست في امتلاك القوة، بل في معرفة متى لا تستخدمها... ليست في إصدار الأوامر، بل في بناء الجسور، وفهم احتياجات الآخرين.

الطاقة الأنثوية والطاقة الذكورية

سادت لحظة صمت، ثم تقدمت ليلى ورسمت على الرمل خطّين متقاطعين:

-كل إنسان يحمل في داخله نسبة فريدة من ما يسمى طاقة أنثوية وطاقة ذكورية...هذا معروف منذ آلاف السنين. هذه الطاقة تجسد مختلف لطاقة الحياة التي تسري فينا. نفس طاقة الحياة الموجودة في كل شيء، التي تسري في كل شيء و التي وراء كل هذا الخلق العظيم.

هذه الطاقة تشكل قوة دفع الحياة و الخلق، لدى الرجل و المرأة.

الطاقة الأنثوية هي اللين، الاستقبال، الاحتواء، الصبر، الرعاية، اما الطاقة الذكورية فتجسد الفعل، الحماية، التخطيط، المواجهة، الحسم.

استمر الحديث الى المساء، كان النقاش حادا، و لكن اغلب الرجال فهموا أن الثورة الحقيقية تحصل في الداخل، ثم تنعكس في الخارج على المدى الطويل. كان اغلبهم متعاونين و يريدون فعلا تحقيق هذه النقلة النوعية في حياتهم.

و صارت ليلى تدير كل يوم سلسلة من الورشات اليومية، حيث يتعلم الرجال فن الإصغاء دون مقاطعة، التعبير عن مشاعرهم بدون خوف، الطبخ مع الأطفال، الزراعة، التأمل الصامت في الطبيعة وايضا الرقص الحر مع النساء والأطفال، لاستعادة خفة الجسد وفرحة الوجود.

كل هذه المهارات، على بساطتها، تحمل بذور المجتمع الجديد. الأرض الجديدة.

ولأول مرة، اجتمعت الطاقة الأنثوية والطاقة الذكورية في أرض البذور، لم تعد القاعدة هي السيطرة أو الخوف بل التوازن. و لذلك، كان الهدف الأول في هذا المرحلة إعادة التوازن للعلاقات بين الرجال و النساء.

كانت تلك الأيام الأولى في رحلة إعادة التوازن و البناء النفسي مهمة جدا. ولكن فكرة القيادة كانت دائما تعود، تطرح من جديد.

في أحد اللقاءات، رفع أحد الرجال يده وسأل:

– لكن فعليا، من سيكون القائد؟ من يقرّر؟

ابتسم عرفان وقال:

– القائد هو من يخدم هدفا معينا بصفة وقتية، حتى يحققه. هو يقود مشروعا معينا لأنه يكون الأكثر كفاءة في مجال معين. في أرض البذور، لا ننتخب قادة ليتحكموا فينا... بل نختار قادة لتنفيذ المشاريع، ونبدّلهم كلما اقتضت الحاجة. القيادة هنا فعل جماعي.

ليست فخرا او مناصب. بالعكس، القيادة مسؤولية لتحقيق الأهداف و المشاريع على أرض الواقع. شيئا فشيئا، ومع مرور الأسابيع، بدأ الرجال يكتشفون أمرا غريبًا... لم يعودوا يشعرون بالحاجة لإثبات أنفسهم بالقوة...بل بالإنجازات. إنجازات حقيقية تطور الزراعة، تطور التكنولوجيا، تحسن الصحة و التعليم...ولا تقاس بالنجوم الزائفة.

و لكن التحدي الأكبر كان في مجال التعليم، فقد كبر عدد سكان أرض البذور و أحيانًا كانت مظاهر العنف، التنافس و حتى النرجسية و الرغبة في التألق ...تعود من جديد. كانت هذه مخلفات البذرة السوداء، العامل "د" الذي زرع في كثير من الأطفال، و وجب انتزاعه بلطف و حزم في نفس الوقت.

الإحساس بالمتعة

كان الرجال القادمون من المعسكرات يجتمعون كل صباح في الورشات و الحلقات التعليمية، مع مدربين مختارين لمساعدتهم في الاندماج في مجتمع البذور. من بين هؤلاء المدربين فاضل، رجل في الستين من عمره، وجهه يحمل آثار تعب السنين و نظرته ثابتة، تحمل تاريخاً طويلا.

فاضل عاش في المعسكر في بداية حياته، مثل كل الرجال، لكنه هرب و بقي وحيدا، عدة سنوات في الصحراء، قبل ان تصله اخبار الثورة و يأتي الى أرض البذور. و منذ ذلك الوقت، صار فاضل من الوجوه البارزة في أرض البذور، و من أفضل المعلمين فيها.

أمامه جلس وليد، أحد الشباب الجدد الذين وصلوا حديثاً من أرض النجوم، كان في الثلاثين من عمره، جسده متصلب، عيونه قلقة، وصوته مرتبك.

قال وليد بصوت خافت فيه شيء من الخجل:

– سيدي... لقد نظّفت كامل المحيط، ورتبت الأدوات كما أمرتني، بدقة ووقت قياسي. ارجو اني كنت من الأوائل اليوم؟

ابتسم فاضل ابتسامة حزينة، ووضع يده بلطف على الطاولة الخشبية، وقال:

– لا، يا وليد...انا لست سيدك. ليس هناك اسياد في ارضنا، انت سيد نفسك... او عبد لها، ان لم تكن حرا. ثم اننا لا نُعطي تقييماً هنا، ولا نبحث عن الأوائل.

ـ إذن كيف أعرف أني كنت جيدًا؟ كيف أُثبت أنني أستحق مكانًا في هذا المجتمع الجديد؟

تنهّد فاضل، وقال:

–في أرضنا لا نُثبت شيئًا لأحد. نحن نعمل لان الحياة حركة و العمل حركة. هذه الحركة، من خلال العمل، امر طبيعي، ليس واجبًا، و ليس شيئا مرتبطا بالجوائز أو المكافآت. نحن نحب العمل لأننا نجد فيه المتعة، و من لا يجد متعة في عمله، هذا يعني ببساطة انه ليس في مكانه، لم يخلق لهذا العمل.

ظلّ وليد صامتاً للحظة، ثم قال:

– ربما لن تصدّقني، لكنني لا أفهم ما تعنيه بكلمة "متعة". لا احس بذلك.

نظر فاضل إلى وجهه بتأمّلٍ عميق، وقال:

–أعرف، يا بني. كنت مثلك تماماً. قضيتُ عشرين سنة هناك... لم أكن أملك حتى اسماً، فقط رقم وشريحة. لم أكن أفهم ماذا يعني أن أكون إنسانًا. كنت فقط آلة تدور ضمن آلة أكبر.

ثم أضاف:

– المتعة يا وليد، لا تأتي من مكافأة او فوز على الآخرين، تلك متعة بدائية تبقيك في غلال العبودية للأسياد او القادة. المتعة الحقيقية و الدائمة و التي ترتقي بك الى مرتبة الانسان الواعي الكامل، هي التي تأتي من الداخل.

و العمل من اجل رضى الآخرين او المكافأة، هو في الحقيقة عبودية. بينما العمل النابع من ذاتك، من ارادتك الشخصية، لتحقيق النفع لك و للآخرين...هو ما يحررك و يجعلك انسانا كاملا واعيا.

-و كيف أعرف ما هو العمل المهم...او الراقي...ان لم يكن هناك من يكافئني عليه؟

-ليس هناك عمل مهم و آخر غير مهم، عمل راقي و آخر حقير، كل هذه الأفكار زرعها فيكم القادة النجوم حتى يبعدوكم عن الفطرة و تصبحوا عبيدا لهم.

كل إنسان يحمل شغفا خاصا به، تيسيرا او رغبة، جامحة احيانا، بأن يعمل، اي يحرك طاقة الحياة التي بداخله، في مجال ما او بطريقة ما. يكفي ان يستمع الإنسان لهذا الصوت الداخلي. ثم اقترب فاضل من نملة تمشي بجانب قدمه...

-انظر يا وليد. انظر إلى هذه النملة التي تتبع صديقاتها في خط مستقيم بحثا عن الطعام. اتظن ان هناك من أمرها ان تقوم بذلك؟

اومأ وليد برأسه...

-لا أدري. لا أظن

-بالفعل، لم يأمرها احد، هي فقط تستمع إلى الصوت الداخلي الذي يرشدها. هذا الصوت موجود في كل المخلوقات و هو بمثابة البوصلة

الداخلية التي تنظم حياة كل الكائنات و تحقق الانسجام الشامل، بالضبط مثلما ترى هنا...(و أشار الى النمل). سكت وليد بضع دقائق محاولا استيعاب هذا الكم الكبير من المعلومات الذي يتدفق في رأسه ، ثم قال:

- كلامك جميل جدا و مختلف عن كل ما اعرفه...او ما وضعوه في دماغي طيلة سنين. و لكن احس جمودا في قلبي، كالحجر. لا أشعر بشيء. هل تظن انني سأتغيّر؟ قال فاضل بنبرة مطمئنة:

- نعم. سيحتاج ذلك بعض الوقت، لكنك ستتغير و ستُشفى. المحيط الذي تعيش فيه هنا سيجعلك تتغير شيئًا فشيئًا. في الحقيقة...الانسان ثمرة المحيط الذي يعيش فيه.

وبينما كانت قطرات المطر تتساقط، نظر وليد نحو السماء، وقال:

-لم أكن أعرف أن للمطر صوتًا... كأنني أسمعه لأول مرة.

قال فاضل:

-لأنك بدأت تعود إلى الحياة. السماء تسقي قلبك، يبدو أنها سمعتك...و أرادت ان ترسل لك إشارة.

الفصل الثاني عشر

فكر جديد

الانسجام بدل التميز

في صباح دافئ على أرض البذور، كانت ليلى تجلس في حلقة صغيرة تحت شجرة توت عملاقة مع عدد من الرجال و النساء القادمين حديثا من ارض النجوم. الأطفال يركضون في الحقول، يضحكون، يزرعون، ويتعلمون من الأرض مباشرة.

قالت سلوى، وهي تبتسم بفخر:

-أطفالي رائعون. حقًا، أعتقد أنهم أذكياء جدًا، متفوقون. لا أفهم كيف كان نظام النجوم يضعهم في مراتب متدنية! كانوا يستحقون أكثر.

نظرت إليها ليلى بتمعن و هي ترتب افكارها، قبل أن تتكلم:

-هل تعرفين يا سلوى، عندما نقول إن أولادنا "متفوقون" أو "ممتازون"، فنحن نعيد إنتاج عقلية النجوم... دون أن نشعر.

نظرت سلوى بدهشة:

-لكنني فقط أُعبّر عن فخري بهم... ألا يُفترض أن نشجع أبناءنا؟

ابتسمت ليلى بلطف:

-بالطبع، لكن التشجيع لا يعني المقارنة ولا السعي للتميز بالنسبة

للآخرين. في أرض البذور، لا أحد يحتاج أن يكون متميزا، يعني ان يكون "أفضل من أحد". التربة لا تقارن بين الزعتر وإكليل الجبل. الشمس لا تُفضل الورد على الأقحوان. كل كائن هنا... هو نفسه، يكفيه أن يكون ذاته.

قالت سلوى:

-لكننا تربّينا على السعي وراء الامتياز، على الخوف من الفشل... حتى مع أبنائنا.

-بالضبط، قالت ليلى. هذا ما علينا تفكيكه.

النجاح في أرض البذور لا يُقاس بالدرجات، بل بالانسجام. الطفل لا يُطلب منه أن يتفوق... بل أن يكتشف من يكون، أن يساهم بما يستطيع و أن يعيش في توازن.

اقتربت طفلتان وهما تضحكان، أيديهما متسخة بالتراب.

نظرت إليهما ليلى وقالت:

-انظري إليهما. هل ترين "الامتياز"؟ لا، ترين الحياة، الحرية، الاتصال بالجذور.

ثم أضافت بنبرة أعمق:

-في الطبيعة، لا يوجد "الأفضل"، يوجد فقط "المناسب"، "المنسجم". هذه هي القيم التي نزرعها هنا. إذا تخلصنا من وهم التميز، سنفتح الباب أمام الإبداع، أمام الاحترام، أمام حضارة جديدة لا تعتمد على المنافسة... بل على التعاون.

خفضت سلوى عينيها، تريد ان تتكلم لكن لا تدري ما تقول. احست انها كانت كالببغاء تردد الجمل و الافكار التي زرعت في دماغها في أرض النجوم.

أضافت ليلى:

-نحن جميعًا نتعلّم. أرض البذور لا تحتاج لأطفال ممتازين... بل لأطفال أحرار.

شجرة الزيتون ليست متميزة أو افضل من شجرة التين أو العنب، لكل شجرة خاصياتها، و كلها تفيد الإنسان إن تعلم كيف يبني مجتمعا و حضارة منسجمة مبنية على التعاون و ليس على التنافس.

قالت امرأة كانت تستمع إلى الحوار دون أن تشارك:

- و لكن حتى في الطبيعة نرى التنافس، إنه آلية للبقاء.

صحيح، أجابت ليلى. هذا صحيح، لكن هل تعلمين أن التعاون، كنظام اجتماعي، هو الأفضل للاستمرار و التأقلم؟ الحيوانات التي عمرت الأرض ملايين السنين هي التي ترتكز انظمتها الاجتماعية على التعاون و التأقلم مع البيئة، مثل النحل و النمل...و الحيوانات التي ترتكز على التنافس لا تستمر كثيرا و لا تتأقلم مع التغيرات البيئية.

التنافس يمنح التفوق للأقوى، نعم، يصبح هذا الأقوى هو القائد في مجموعته و يسيطر عليها، لكن هذا الأقوى و مجموعته، لا يستطيع أن يستمر بدون ذكاء المجموعة، يعني بدون التعاون. هذا مثبت علميا.

واصلت ليلى الحديث و هي تنظر الى اغصان الاشجار تتمايل :

-و كأن الطبيعة تعلمنا بطريقة غير مباشرة كيف نعيش مع بعضنا البعض...

و كأن الطبيعة هي كتاب مفتوح، لمن يريد أن يقرأ.

تعجبت سلوى و قالت:

-فعلا. كلامك صحيح. الطبيعة تعلمنا كل شيء، يكفي ان ننظر

اليها. لماذا لا يعلمون هذا لأطفالنا في أرض النجوم؟

ضحكت ليلى:

-لأن المعرفة الحقيقية تحرر الإنسان. و هم لا يريدون ذلك. فيغرقون أطفالنا بمعرفة سطحية زائفة تمنعهم من رؤية الحقيقة.

التفتت المرأتان فجأة...

بينما كان هذا الحوار يدور بينهما، تجمعت عشرات الأمهات تستمع اليهن. الأفكار الحرة لديها أجنحة.

الأمراض القديمة

ميساء ونورا اختان و صديقتان منذ سنوات في أرض النجوم. زوج ميساء انتحر في المعسكر و زوج ميساء اختفى او هرب، لا احد يعلم عنه شيئًا. وهذه الصداقة صارت اقوى على أرض البذور حيث كان التغيير جذريا بالنسبة لهما.

جلست ميساء ونورا على مقعد خشبي صغير بين الأشجار، تراقبان أطفالهما يلعبان بالطين ويصنعان مجسمات غريبة تعكس خيالهما الحر.

قالت ميساء:

– كلما مضى الوقت هنا في أرض البذور، أشعر وكأنني أتعافى من مرض لم أكن أعرف أنني مصابة به... كأن روحي كانت مريضة بالضغط، بالمقارنة، بالخوف الدائم من ألا أكون "كافية".

ابتسمت نورا وقالت:

– نعم، وأنا أيضًا. بدأت أدرك أن النظام في أرض النجوم لم يكن فقط قاسيًا... بل كان خبيثا جدا. كان يُقسّم الناس كما لو كانوا في سباق، يبحث عن "الأفضل"، "الأذكى"، "الأكثر كفاءة"... لكنه نسي شيئًا

مهمًا جدًا.

– ما هو؟ سألت ميساء.

نظرت نورا إلى كف يدها، وقالت:

– نسي أن الحياة كلها تقوم على التنوع والتكامل، لا على التنافس. فكّري في الجسد البشري... هل يمكن أن نقول إن القلب "أفضل" من الكلى؟ أو أن الدماغ "أذكى"

من الكبد؟ كل خلية، كل نسيج، له دوره، وله حكمته.

أومأت ميساء برأسها:

-هذا يشبه كلام السيدة ليلى....

-نعم، قد سمعتها تتحدث هكذا واعجبني المثال. فعلا مليارات الخلايا تتعاون كل يوم في أجسادنا ... في صمت، في نظام مذهل. ليس هناك صراع بينها، ليس هناك مقارنة. كل جزء يعرف دوره ويقوم به بكل حب.

-بالضبط، قالت نورا. هذا هو ما تحاول أرض البذور أن تُعيده للإنسان: هذا الفهم العميق بأننا لا نحتاج أن نتفوق على بعضنا البعض... بل أن نكمل بعضنا، أن نتواصل، أن نتعاون.

ثم أضافت بنبرة متأملة:

- في أرض النجوم، علمونا أن السعادة تُشترى، تُنال بعد تعب، بعد صراع. لكن الحقيقة؟ السعادة هي في الرابط، الرابط بين القلب والقلب، بين الإنسان والإنسان، بين الإنسان والطبيعة، يعني في العلاقة التي نربطها مع بعضنا البعض و مع بقية الكائنات.

قالت ميساء :

-فعلا المنافسة تجعل أجسادنا تصنع هرمونات الخوف و الغضب... لكن العلاقة المتعاونة تجعل أجسادنا تصنع هرمونات الفرح.

قالت نورا:

-قد فهمت الآن. بعد سنوات من البرمجة و غسيل الدماغ، فهمت ان احساس السعادة الحقيقية لا يأتي من الفوز على الآخرين، بل عندما

تحس أنك جزء من كلّ أكبر... تعمل مع غيرك، تشعر بأنك لست وحدك، تشعر بأنك تُساهم في بناء شيء جميل أكبر منك بكثير.

ثم نظرت إلى السماء وقالت:

-أرض النجوم قطعت أوصالنا. فرّقتنا عن أنفسنا، عن أولادنا، عن بعضنا البعض. أما هنا... فنحن نعيد الاتصال بهذا الرحم الكبير.

فيروس التنافس

الهجرة متواصلة من أرض النجوم الى أرض البذور و يجب استيعاب هذه الأعداد الكبيرة من الناس.

كان عرفان يتنقل بين الحلقات ليساعد الرجال القادمين من معسكرات اخرى على التأقلم و تقبل الفكر الجديد المبني على التعاون.

في هذا الصباحٍ، كان عرفان يراقب الأطفال يركضون، يضحكون، يتسلقون الأشجار، يصنعون آلات غريبة، يلوّنون وجوههم بأصباغ طبيعية... و لكن كان هناك طفل يجلس وحيدا.

هذا الطفل يُدعى زين، عيونه بلون العسل، وشَعره يتطاير مثل سنابل القمح. وجهه جميل جدا لكنه دائما متشنج.

ذهب اليه عرفان، جلس قربه:

ـ هل ترغب بالانضمام إلينا؟ نحن نُجرب رقصة اسمها "رقصة الطين"!

ـ ما الفائدة منها؟

ـ لا فائدة... فقط نمرح!

تردّد الطفل، ثم قال بنبرة آلية:

ـ الوقت مهم... كل دقيقة يجب أن تُستثمر... كل جهد يجب أن يُقابل بنتيجة.

ضحك عرفان، وجلس بجانبه.

بدا التشنج واضحا على الطفل:

ـ انا لا احب هذا النوع من اللعب. انا اريد أن افوز بشيء... حتى احس بقيمتي.

ـ هذا فيروس يا صغيري.

ـ فيروس؟

ـ نعم... فيروس زرعه نظام النجوم في عقولنا عندما قال لنا ان الحياة هي سباق، ان الحياة تعني التفوق، ومن لا يربح، لا يستحق الحياة.

صمت زين، هذا الكلام اخترق شيئًا عميقًا داخله.

واصل عرفان:

–هل تعرف كيف تنشأ الحياة؟ كيف تتكوّن الكائنات؟

ـ لا.

ـ من التعاون. من التناسق. من الانسجام.

كلّ خلية في الجسم لا تسعى للفوز على الأخرى...

الكبد لا يتنافس مع القلب، والرئتان لا تغاران من الدماغ.

بل تعمل كلّها معًا، في تناغمٍ ساحر، لتصنع الإنسان.

ـ لكنني لا أشعر بهذا الشعور.

ـ لأن الفيروس ما زال يعمل بداخلك.

لكنه يضعف، يا زين، يضعف كلّما ضحكت...كلّما رقصت، كلّما شعرت بالامتنان.

سأقول لك سرا...

–ما هو؟

–فيروس التنافس لا يحب الرقص و الفرح، لا يحب الهدوء ... إنه يعيش في التوتر، في المقارنة، في الرغبة بأن تكون الأفضل دائمًا.

تنفس يا زين. تنفس بعمق، استرخ و أغمض عينيك....ماذا تحس؟

سكت زين، ثم قال :

ـ أشعر بشيء غريب في صدري. كأنّه دافئ، كأنّه حي.

ابتسم عرفان:

ـ هذا دفء الحياة، هذه طاقة الحياة بداخلك، انت الحياة يا زين، و لا تحتاج اي شيء اكثر من ذلك.

ـ ماذا أفعل بهذه الطاقة؟

ـ اسقِها بالحبّ، باللعب، بالرقص، بالتواصل مع الآخرين.

ستكبر... وستُعيد ترتيب كل شيءٍ في داخلك.

وعندها لن تركض بعد اليوم لتربح، ستصبح حرا، مبدعا، سترقص و تعيش الحياة الحقيقية.

نقطة التحول

بعد بضعة أيام، دخل زين الورشة برفقة الأستاذ نديم، أحد المعلمين الذين يرافقون الأطفال. كانت الورشة تعجّ بالأدوات، بالأخشاب، بالألوان، بروائح الطين والنباتات الجافة.

جلس زين بصمت، يراقب طفلاً يُشكّل آلة موسيقية غريبة من قصب السكر، وآخر يرسم لوحة ضخمة.

قال بتردّد:

ـ جميل ما تصنعونه، و لكن ما الهدف من هذه اللوحة؟ أو هذه الآلة الموسيقية؟ ما الغاية؟

ـ ليس هناك هدف محدد، نحن نستجيب لنداء داخلي يدعونا للخلق، نحن نجرب، نتدرب على الخلق. و هذا يعطينا شعورا كبيرا بالذات، نحس متعة تأتي من الداخل، و ثقة في النفس و في العالم تكبر و تترسخ ...

تذكر زين حينها ان هذه الأمور كانت مكروهة في أرض النجوم، كان الناس يفضلون شراء اشياء جاهزة، حتى لو كانت باهظة الثمن و اضطرهم ذلك لجمع عدد اكبر من النجوم.

بدأ يفهم كم كان شعبه مستعبدا ...يلهث وراء النجوم ليشتري اشياء يكدسها في البيوت، دون ان يحس بهذه المتعة التي يتحدث عنها سكان أرض البذور.

ظلّ زين يراقب قطعة خشب أمامه، لا يعرف ماذا يفعل بها.

ثم فجأة، رفعها وبدأ يبرد حوافها، دون أن يفكر.

كأنّ يديه تتقدّمان من تلقاء نفسهما، تنحتان، تُشكّلان، ليس هناك هدف واضح، فقط حُضور و ابداع.

ـ ما الذي تصنعه؟

سأله أحد الأطفال.

ـ لا أعلم... فقط أشعر أني أحتاج أن أفعل شيئًا. ان اخلق شيئًا بيدي.

مرّت ساعات لم يشعر بها، كانت عيناه تلمعان بشيءٍ جديد...

شيء لا يشبه اللهفة القديمة لجمع النجوم، شيء أكثر عمقًا، دفء يسري في اليدين و في الصدر.

قال الأستاذ نديم وهو يُربت على كتفه:

ـ رأيت ذلك كثيرًا. أطفالٌ جاءوا من أرض النجوم، يعتقدون أن العمل لا يُؤتي ثماره إلا إذا قُيِّم... إذا كُوفِئ.

لكن شيئًا فطريًا فيهم يقاوم.

الروح في أعماقهم تعرف أن الفعل بذاته هو المكافأة، أن الإنجاز الحقيقي هو أن تُعبّر عن نفسك، لا أن تنال إعجاب الآخرين.

ـ نديم، اخاف ان أعود كما كنت هناك...ياله من سجن.

ربت نديم على كتفه:

ـ لا تخف، لا أحد يعود كما كان بعد أن يتذوّق طعم الخلق من أجل المتعة و من أجل أن يمنح شيئًا جميلاً للحياة...انها نقطة تحول.

سكت زين، نظر إلى منحوتته الخشبية. لم تكن متقنة، لكنها تحمل شكلاً فريدا...

كأنّها قلبٌ صغير ينبض من الخشب. كان فخورا جدا بما صنعه. فخر داخلي، لا ينتظر مكافأة خارجية.

ـ أعتقد أني سأضعها في الساحة العامة.

قال نديم:

ـ ألا تريد ان تأخذها معك إلى البيت؟

ـ لا. أنا استطيع ان اصنع الكثير من هذه المنحوتات.

ابتسم نديم، وقال لنفسه...

فعلا، وصل هذا الفتى إلى نقطة التحول.

الفصل الثالث عشر

جنة تُولد من التراب

المعرفة الحقيقية

التعليم كان الركيزة الاساسية لتطوير أرض البذور. في أحد الصفوف، كانت المعلمة نسرين تُحدّث الأطفال عن التكنولوجيا.

قال طفل يبلغ من العمر عشر سنوات:

-هل التكنولوجيا خطر؟ يقولون انها كانت السبب في انحطاط و عبودية سكان أرض النجوم...

-ملاحظة ذكية يا أمين. لكن يجب ان نحلل الأشياء بعمق حتى نفهم خبايا الأمور. ليست التكنولوجيا عدوًّا، هي فقط أداة. لا نستطيع أن نقول ان الاداة شريرة او خيرة، المسؤول الوحيد هو الإنسان الذي يستعمل هذه الاداة. و نحن هنا نريد أن تكون التكنولوجيا اداة رقي الانسان الى مرتبة اعلى، مرتبة الانسان الواعي الكامل، نريدكم ان تطوروا تكنولوجيا تكون طريقا للحكمة. و كذلك الامر بالنسبة للاقتصاد.

ما معنى اقتصاد يا أطفال؟ من يستطيع ان يفسر لي هذا المفهوم؟

بدأ الأطفال يبحثون عن معنى هذه الكلمة مع حجر المعرفة.

رفع امين يده مرة أخرى ليتكلم :

-ببساطة، الاقتصاد هو مجموع عمليات خلق الثروات، عبر الزراعة، الصناعة، الصحة و حتى الفن...و توزيعها بين الناس.

-أحسنت يا أمين احسنت، حتى الفن نعم، بل ربما الفن هو أهم الثروات التي يخلقها الإنسان و تجعله هذا الكائن المتقدم، نسبيا، عن بقية الكائنات.

رفع طفل آخر يده و قال:

-معلمة نسرين، هناك شيء لا افهمه...

-ما هو؟

-اليست كل الثروات متاحة لكل الناس؟

تنهدت نسرين و نظرت إلى كل الأطفال و كأنها تضمهم بعينيها:

-نعم، بالفعل، كان الاقتصاد في أرض النجوم قائما على تكديس الثروات بين يدي عدد قليل من الناس، و الاحتكار. كان الهدف هو ان يمتلك الإنسان أكبر عدد ممكن من الأشياء.

ضحك الأطفال بكل عفوية و قال أحدهم:

-هذا سخيف، فالأرض هي التي تعطي كل شيء، هي التي تمتلك كل شيء في الأساس !

أومأت نسرين برأسها :

-صحيح. صحيح. لكن الحياة في مراتب الوعي الدنيا كانت مختلفة تماما عن ما تعيشون اليوم يا أطفال. هؤلاء الناس لم يكن لديهم احساس الانتماء للجسم الأكبر الذي تربيتم انتم عليه...

قال طفل لصديقه الجالس بقربه:

المساكين... اني اشفق عليهم. لا بد انهم كانوا في غاية الشقاء، تصور انهم لا يحسون بالأمان و الانتماء الذي نحس به نحن...اضن انهم كانوا يعيشون في الخوف

- والخضوع، انها حياة شقاء و معاناة و ركض لا ينتهي وراء لقمة العيش.

سمعتهم نسرين و قالت:

-فعلا. لقد فهمتم كل شيء يا أطفال. كانت حياتهم دنيا فعلا، معاناة لا تنتهي. و كانوا يُبرمجون أطفالهم على مواصلة نفس طريقة التفكير،

نفس طريقة العيش، لا يحدثونهم عن الفلسفة و الاقتصاد والتكنولوجيا و الفن و كل ما تعرفونه انتم...

بدت آثار الدهشة على الأطفال...

-ماذا يعلمونهم اذا؟

-يجبرونهم على شيئين اثنين: الحفظ و التصفيق. يجب ان يحفظ الأطفال أكبر عدد ممكن من المعلومات المتفرقة في ميادين متعددة، و هكذا لا يستطيعون فهم العالم بطريقة شاملة، لا يمتلكون المعرفة الحقيقية، و يظنون في نفس الوقت انهم يعرفون الكثير...لأن ما يحفظونه كثير و هذا تحديدا ما يحرمهم من المعرفة الحقيقية و ابسط قدرات التفكير و التحليل التي تمتلكونها انتم.

-و لكن لماذا كانوا يقبلون بهذا الأمر؟ و لماذا التصفيق ؟ لا أفهم...

-كانوا مجبرين...كان الطفل يبرمج على التصفيق لكل ما يقال له، يبرمج على الطاعة العمياء. كان الحفظ و التصفيق هو سبيلهم الوحيد حتى ينالوا أكبر عدد ممكن من النجوم، و هذه النجوم هي العملة او النقود التي يشترون بها الأشياء. و هكذا كان هؤلاء المساكين مجبرين

على اللهث وراء النجوم والمكافآت طوال الوقت لتوفير أبسط متطلبات الحياة...حتى ظهر عرفان، و تعرفون بقية القصة.

و الاقتصاد يا أطفال، كان من أخطر العلوم التي يتجنبها نظام النجوم حتى يبقى الناس مكبلين بأغلال النقص و الاحتياج. كان الأطفال يستمعون في تركيز تام، و يقومون بأبحاث في نفس الوقت، فقد اعتادوا البحث عن المعلومات بأنفسهم.

واصلت نسرين:

– في أرض البذور، لسنا ضد الاقتصاد المزدهر أو التكنولوجيا، بل ضد التبعية. ضد أن نُصبح عبيدًا لأشياء كان من المفترض أن تخدمنا. نحن مزارعون في الاصل، تعلمنا كل شيء من الأرض، من الطبيعة. الطبيعة هي أم الحكمة. غباء كبير أن يحطم الإنسان الطبيعة و يستعبد اخاه الانسان كي يجمع النجوم. الطبيعة لا تخسر ابدا، الإنسان هو الذي يخسر ان لم يفهم و يحترم ذكاء الطبيعة.

الإنسان يمكن أن ينقرض تمامًا ان أفسد التوازن الطبيعي للأرض... و تستمر الحياة دائمًا، و تتجدد، مع أو بدون الإنسان. هل فهمتم يا

أطفال؟

قال طفل صغير:

-هذا هو الاكتفاء السعيد اذن...؟

-أحسنت!

قالت نسرين:

- يعني أن نعيش بكفاية، لا بفائض. أن نستهلك بوعي، لا بجشع. أن نزرع ونأكل ونبدع، لا أن نلهث خلف تراكم اشياء مادية. الحياة شيء حي و الاقتصاد يجب ان يخدم الحياة.

الجحيم بالداخل

في الخارج، كانت الطائرات المسيّرة تحلق بلطف، تُراقب الغابات لحمايتها من الحرائق، وتقوم بإرسال معلومات فورية للمزارعين حول حالة التربة. كان الناس يزرعون في الشرفات، على الأسطح، في الميادين. لم تكن هناك ملكية فردية مفرطة، بل مساحات يُشارك فيها الجميع.

كل بيت كان مزودًا بطاقة شمسية لا محدودة. المياه يعاد تدويرها بذكاء. كل شيء بسيط، نظيف، نافع والطاقة الشمسية هي أساس الحياة في أرض البذور. طاقة نظيفة متجددة غير محدودة.

في الساحة الكبرى، جلس عرفان مع ابنه أيمن على طاولة رخامية كبيرة، يتأملان الأطفال يلعبون في الماء، ويضحكون.

سأل أيمن:-بابا، الا تعرف اين جدي مالك؟

انقبض قلب عرفان...

-لا اعرف و لكني احس انه حي، و سأنظم رحلة بحث قريبا في الصحراء. اظن انه هرب من أرض النجوم ثم ضل طريقة. لا اظن ابي ينتحر مثل ما يفعل بعض الرجال الفاقدين للأمل.

قال أيمن:

-و لماذا يبقى الكثير من الناس في أرض النجوم؟ لماذا لا يتركون هذه الأرض الظالمة و ينضموا الينا؟

لم يتوقع عرفان هذا السؤال، ولا احد يقدر ان يغوص في أعماق النفس البشرية القادرة على البناء و المليئة بالخير والقادرة على الهدم و الشر في نفس الوقت.

فكر قليلا ثم قال:

-اظن ان الخوف و التمسك بالقديم او المألوف...هو ما يمنعهم. قلوبهم لا تحمل القدر الكافي من حب الحياة حتى يتحرروا من الخوف.

إنهم يخافون يا بني. ليس منّا... بل من الحرية. الحرية تتطلّب مسؤولية. وهم تربّوا على الطاعة، على أن يختار أحد نيابة عنهم. هنا نحن نعيش في الجنة. بنيناها هنا، بأيدينا، بعلمنا، بحبّنا، بأخلاقنا. دعوناهم أن ينضموا الينا، هناك من يأتي و هناك من يرفض التغيير. لا نستطيع أن نجبر الناس يا بني، أحيانًا يتمسكون بجحيمهم دون أن يحتاجوا أن يجبرهم أحد عليه.

في الجانب الآخر...

في الجانب الآخر، كانت أرض النجوم تعيش احتقانًا كبيرًا. حملات إعلامية تشنّ على أرض البذور، تُتهم بالخيانة، بالضلال، بالتهديد الثقافي.

يظهر كل يوم قادة النجوم في بثّ مباشر قائلين:

نحن أصحاب الحضارة، ونحن مَن نعرف الطريق. لا تسمحوا لهؤلاء الحالمين أن يسلبوكم أبناءكم. إنهم ضد النظام، ضد العقيدة، ضد الوطن!

خرجت مظاهرات تطالب باسترجاع الأطفال، بتدمير أرض البذور، باعتبارها مركزًا للانحراف. لكن لا أحد من أرض البذور ردّ. لأنهم فهموا الدرس: لا تُجادل الغاضبين. لا تحارب من يحارب. فقط انسحب و استثمر طاقتك في البناء. بناء بدائل.

في يوم ما حاولت بعض المجموعات اقتحام أرض البذور، توقفت أقدامهم فجأة عند الحدود، كما لو أن أجسادهم ترفض العبور. كانت هناك طاقة مختلفة، ناعمة، مُهذّبة، لكنها حازمة.

قال أحد المهاجمين:

-أشعر بأنني مشلول... لا أستطيع الحركة، لا أستطيع الدخول! ما هذا السحر؟!

لم يستطع أحد أن يفسر هذا الامر. تقول الإشاعات أن هناك تكنولوجيا متطورة في أرض البذور، حزام من الطاقة الكهرومغناطيسية يحمي هذا المكان.

أفراد مجتمع البذور اناس مسالمون مؤمنون بقدراتهم الخاصة، لا ينتظرون نجوما و لا مكافآت خارجية، يعملون بكل تلقائية و يسر في المجال الذي يختارونه، يتعاونون، يتعلمون مدى الحياة و ينشرون العلم و السلام و المحبة. و هذه الطاقة التي تجمعهم و تكبر بهم كل يوم، تشكل نوعا من الحزام الذي يفصلهم عن من لا يشبهونهم.

وهكذا كان كل هجوم على ارض البذور يفشل،. وتحوّلت الأرضان، أرض النجوم و ارض البذور، إلى رمزين: واحدة تُكرّر الماضي و تجذب الناس في دوامة جهنمية تخدرهم و تستعبدهم لمصلحة الحكام. والأخرى، ترتقي بالإنسان الى مراتب عليا لم تعرفها البشرية من قبل.

احب هذه الأرض

تطورت التكنولوجيا أكثر فأكثر بفضل المهندسين و العلماء الذين ولدوا و كبروا في أرض البذور، حاملين في دماءهم و في دماغهم فلسفة حياة مختلفة تمامًا عن أرض النجوم. و كانت التكنولوجيا تستخدم خاصة في التعليم، يتم استثمارها في عقول الأطفال حتى تستمر أرض البذور و تكبر و تتطور أكثر فأكثر.

في قلب أحد الوديان الخضراء، انتصبت شجرة عملاقة، ليست شجرة عادية، بل كانت مصنوعة من مزيج طبيعي ذكي: جذع حيّ، وأغصان معدّلة بنسيج حيوي يسمح بتشكيل غرف تعليمية مفتوحة، تتنفس مع الهواء، وتتمايل مع الضوء.

سُمّيت هذه الشجرة: "شجرة المعرفة". وكانت أول مدرسة عضوية في أرض البذور حيث كانت التكنولوجيا البشرية تسعى دائما للحفاظ على روح الطبيعة و التناغم معها.

جلس الأطفال حول المعلمة سلمى على فرشات من أوراق اللوتس الجافة، يتأملون حركة الضوء التي تمرّ بين الأغصان، وتنعكس على

لوحات زجاجية شفافة تُعرض عليها صور من المجهر وأعماق البحر والكون.

اقترب طفل جديد، يُدعى نوار، كان قد وصل حديثًا من أرض النجوم، لا يزال يحمل في عينيه ظلال التراتبية، والتصنيف، والخوف من الخطأ.

سألته سلمى:

-ماذا تُحب أن تتعلّم اليوم؟

فكر الطفل قليلًا... ثم قال:

-أريد أن أعرف... كيف تتحدث الأشجار مع بعضها البعض؟

أضاءت عينا المعلمة. قالت:

-سؤال عظيم! سنذهب الآن إلى الجذر المركزي للشجرة، حيث ستتعلّم كيف ترسل الأشجار إشارات كهربائية عبر التربة، كيف تتبادل المغذيات، وكيف تساعد الشجرة القوية الشجرة الضعيفة... تمامًا كما نفعل نحن هنا.

في نفس الوقت كان هناك اجتماع للمربيات.

في فرع علوي مفتوح من الشجرة، اجتمعت المربيات تحت قبة شفافة

تطل على الغابة.

قالت إحداهن، وتُدعى ندى:

-اواجه بعض الصعوبات مع الأطفال القادمين من أرض النجوم، لازالوا يعانون من متلازمة السباق... عقولهم مبرمجة على النجاة لا على النمو.

أجابت مربية أخرى:

-لهذا نركّز على الارتباط، على أن يشعر الطفل بالأمان، أن يعرف أن قيمته لا تتعلّق بما يملكه أو ينجزه، بل بقدرته على الإحساس، على التواصل، على أن يكون جزءًا من النسيج الحيّ للمجتمع.

أضافت سلمى:

-سمعت ان هناك ذكاء اصطناعي جديد بصدد التطوير، كل طفل سيُرافقه 'راصد نمو' يرافقه في رحلته التعلمية منذ البداية، ليرى متى تتفتّح زهرة فضوله، ومتى ينمو شغفه، و في اي مجال بالضبط، حتى يقدم له معلومات او صور...او محفزات تعلمية من اي نوع، في الوقت المناسب.

-سيكون هذا رائعا!

انتهى الاجتماع و ذهبت كل مربية إلى بيتها. عاد الأطفال إلى بيوتهم

ايضا.

عاد نوار إلى منزله في المساء وهو بيتٌ صغير مبني على شكل كوكب، وبدأ يدوّن ما تعلّمه كما طلبت منه المربية سلمى.

كتب:

اليوم تعلّمت الكثير لأني شعرت بالدهشة.

ضحكت لأن الجو كان محفزا.

انا احب هذه الأرض.

انت ابننا جميعا

عاد نوار إلى نفس الشجرة في الغد.

في أحد الفروع الوسطى، وُضعت منصة تعليمية مكونة من ألواح بلورية ذكية، شفافة، لكنها قادرة على عرض الصور والمجسمات والروائح بدقة عالية دون الحاجة إلى أي شاشة مسطحة أو هاتف.

اقترب الطفل، وكان لا يزال مدهوشًا من غياب الأسلاك، والانقطاع التام عن الهواتف والسماعات.

سأل معلم الفيزياء الحيوية، الأستاذ سمير:

-أين الحواسيب يا استاذ؟ وكيف تُعرض هذه الصور دون كهرباء؟

ابتسم سمير وقال:

-في أرض البذور، التكنولوجيا ليست شيئًا خارجيًا ... بل شيئًا يُزرع في الأرض وينمو معنا. هذه البلورات، على سبيل المثال، تُغذَّى من ضوء الشمس، وتُفعّل بطاقة الحقل الحيوي الصادر من أجسادنا.

هل تعني... أن جسدي هو من يشغّلها؟

-تمامًا، أنت لا تحتاج زر تشغيل. رغبتك الصافية في التعلّم، فضولك،

تركيزك... كل ذلك يفعّل النظام.

ثم لوّح بيده فظهرت مجسّمات ثلاثية الأبعاد لمجموعة من الكائنات الدقيقة التي تعيش على جذوع الأشجار. بدأ الأطفال يلمسونها، يشمّون رائحتها، يتفاعلون

معها دون أن تكون هناك شاشة أو لوحة مفاتيح.

سأل نوار بدهشة:

-... في أرض النجوم، يُمنع لمس أي شيء حقيقي.

أجابه سمير:

-نعم، اعلم ذلك، في أرض النجوم، التكنولوجيا تُستخدم لعزلك عن الطبيعة، لعزلك عن نفسك. أما هنا، فنحن نُصمم التكنولوجيا لترتقي بنا: هي أداة لفتح الحواس، لا لإغلاقها. يجب أن تنسى أرض النجوم يا بني، أنت الآن ابن هذه الأرض، أرض البذور.

تعجب نوار من كلمة بني، لم يعتد على ذلك ابدا، فالجفاف المشاعري و انعدام التعاطف يمثلان القانون في أرض النجوم.

ضحك سمير و قال:

-لا تتعجب يا نوار، انت ابن هذه الأرض الآن، اذا انت ابننا جميعا. نحن هنا نتعاون لنبني و نطور أرضنا، تماما مثل النمل أو النحل.

ثم احتضنه. حضن طويل وصامت، لكنه أكثر تعبيرًا من ألف جملة.

في هذا المدرسة، لا يوجد صراخ، لا توجد أوامر، الكل يتصرف و يعيش بحرية، و لكن هناك تناغم داخلي، وكأنهم فرقة موسيقية تعزف الحياة بإيقاعٍ ناعم.

الأمن العاطفي

حين عاد سمير الى البيت، روى لزوجته ما حدث مع الطفل نوار...

كانت زوجته ماريا تجلس بقربه على الاريكة و تداعب يده بهدوء، قالت:

-فعلا، لاحظت هذا الأمر منذ البداية في أرض البذور، حتى الاحتكاك الجسدي ليس مقترنًا بالجنس، بل بالتواصل العميق. التربيت على الكتف، مداعبة الشعر، لمس اليد، الحضن... كلها لغة محبة وطمأنينة تُستخدم يوميًا لإعادة شحن الطاقة الحيوية بين الناس.

اتذكر كيف كانت حياتنا في أرض النجوم سباقا لا ينتهي ؟ ضغط، صراخ و توتر. كان الناس في حالة جوع دائم، جوع جسدي و جوع ذهني و جوع عاطفي!!

وهنا....الاحساس السائد بالأمن، و هو حجر الأساس لبناء كل شيء. فعلا.

قال سمير:

-نعم، اتذكر جيدا. معك حق، الاحساس بالأمن أساس كل حضارة.

نحن نمضي وقتا طويلا مع الأطفال في المدرسة، لكن الخطوة الأولى تبدأ من داخل الأسرة، من هذا الحضن، من هذا الحصن.

الأمن العاطفي هو فعلا بمثابة حصن.

ليس ترفاً، بل هو الأساس، هو الإطلاق الحقيقي لقدرة الإنسان على النمو والتطور بثقة وانسجام. إنه الغذاء الروحي الأول الذي يمنح الإنسان شعوراً بالطمأنينة، ويغذّي قلبه بإحساس الانتماء، يعني ان له مكاناً آمناً في هذا العالم.

هذا الأمن تبدأ بذوره في أحضان الأم، ويتعزز داخل العائلة، ثم يكبر ويُروى من خلال المجتمع. حين يحاط الطفل بالحب، بالقبول غير المشروط، وبالاهتمام الصادق، ينمو كمن يتنفس هواءً نقياً، فيستطيع أن يثق بنفسه، وبالناس، وبالحياة من حوله.

أما حين يُحرم الطفل من هذا الأمان، لأن أمه تعاني من اضطراب نفسي، أو لأن الجو العائلي مليء بالصراعات، أو لأن المجتمع منغلق وقاسٍ، فإن الأمر يشبه شخصاً يُمنع من الأوكسجين. إنه يختنق، ببطء، وربما دون أن يعي تماماً السبب. يكبر وهو يحمل داخله فراغاً، خوفاً، وتمزقاً

داخلياً، مما يُضعف قدرته على التفكير السليم، والتفاعل المتزن، واتخاذ قرارات حياتية بناءة. و هكذا كان الناس في أرض النجوم...

ماريا:

– هؤلاء الناس ضحايا في نهاية الأمر، إني اشفق عليهم.... لم يجدوا محيطا محبا داعما، الرجال في المعسكرات طول الوقت و الامهات جنود النظام لزرع التنافس و الضغط و النرجسية منذ الصغر.

–كيف تقولين ذلك؟ ليسوا ضحايا. كل انسان حر في اتخاذ القرارات الصائبة...او الغير صائبة.

صمتت ماريا قليلا ثم قالت:

–انا كنت ضمن علماء النفس الظلامي، كنت أعمل على برمجة الناس و زرع العامل "د" في الأطفال...

تفاجأ سمير...

–لم اكن اعلم ذلك!

-نعم، لا أريد أن أتحدث عن حياتي السابقة و قد أخذت عهدا على نفسي ان أصلح كل ما هدمته مع نظام النجوم. و لهذا دخلت في فريق مشروع الاندماج الواعي.

الأمن العاطفي ليس فقط الحنان، بل هو الشعور بالاحتواء، أن يجد الإنسان من يفهمه، من يحميه، من يؤمن به، حتى قبل أن يؤمن هو بنفسه. وعندما يتحقق هذا الشعور، عندما نصبح فعلا مؤمنين لبعضنا البعض، يصبح الإنسان مؤهلاً ليحقق غايته الكبرى: أن يكون خليفة الله، الخالق الاكبر، قائدا حقيقيا في الأرض، و يعمرها بالحب، بالعقل، وبالعمل الصالح. الأمن هو الأساس.

مشروع الاندماج الواعي

جلس المهندس هاني في حديقة بيته، حجر المعرفة في يده لا يفارقه، و اخرج جهازا صغيرا ليشتغل عن بعد مع زملائه و منهم ماريا، في فريق تطوير "الاندماج الواعي"، الذي يهدف إلى مساعدة سكان أرض النجوم على التحرر من النظام القديم عبر رفع الوعي من الداخل.

يهدف البرنامج إلى تقليل غريزة الخوف والمنافسة، وتعزيز روح التعاون والمساعدة.

كان فريق المشروع يتكون من مئات الأشخاص ذوي الاختصاصات المختلفة، و كلهم يعملون من اجل هدف واحد.

قال سامر:

. أنتم ترون ما يحدث في ارض النجوم ... كل يوم يزداد الأمر سوءًا. الأنانية، الفوضى، القذارة... كيف سنساعدهم؟ هذا شبه مستحيل!.

قال هاني:

-هذا واجبنا. نحن لا نعيش فقط لنبقى أحياء، مثل الحيوانات، نحن نعيش لنتطور، لنساعد إخوتنا في الإنسانية الذين ما زالوا غارقين في

الجهل و الفقر و الخوف.

يجب ان نجد طريقة لنساعدهم. يا اخوتي، قد جعلنا الارض جنة، نعم. لقد نجحنا في حمل الأمانة، الحياة اصطفتنا منذ البداية بعقل متطور قادر على الخلق، صحيح اننا كبشر اسأنا استعمال هذا العقل على مدى آلاف السنين، و لكن الآن نجحنا، او نجح البعض منا على الاقل، ان يخطو هذه الخطوة الى الامام، و سنحاول ان نساعد البقية على الارتقاء. يجب ان نحاول.

تنهد ياسين :

. المشكلة عميقة يا هاني... العقول نفسها مبرمجة. قادة النجوم يريدونهم هكذا: عيون مغلقة، وعقول لا تسأل. كل ما يهمهم هو جمع النجوم، سواء كانت علامات في المدرسة أو اشياء يكدسونها في بيوتهم، منطق استهلاك و ركض و سباق اجتماعي مستمر. دينهم التنافس بينما ديننا التعاون. نحن مختلفون كثيرا.

قال سامر بحزم:

. اعلم ذلك جيدا ياسين. اعلم ذلك. علينا أن نفهم السبب لنحاول

التغيير.

ردّت مريم وهي تميل بجسدها للأمام:

. لأن الجذور فاسدة بكل بساطة. التعليم هو الأساس. إذا كانت السنوات الأولى للطفل تخضع لبرمجة كاملة، فماذا تتوقع منه حين يكبر؟

رفع ياسين يده :

. نعم. التعليم... هو البداية والنهاية. لكن التغيير لن يحدث في يوم وليلة. نحن نتحدث عن جيل كامل على الأقل.

عندها قال فؤاد، الذي كان صامتًا طوال الوقت، بصوت عميق:

. لنكن واقعيين، هذا شبه مستحيل. القوى التي تمسك بالسلطة المركزية لن تسمح أبدًا بتغيير لا يخدم مصالحها. هم يريدون مواطنين جاهلين، مطيعين، لا يعرفون سوى جمع النجوم.

نظر الجميع إليه، فأكمل:

. لهذا، الأفضل أن نعمل في الخفاء، ان نعمل على الأفراد. نعطيهم الوسائل ليطوروا وعي التعاون بطرق مختلفة، مثلا ليبدعوا في الفن أو الرياضة أو الأدب أو الشعر أو العلوم... لكن بشكل مستقل، بعيدًا

عن أذرع السلطة. في الجمعيات، كما فعل عرفان مؤسس أرضنا، تبدأ الأمور صغيرة، في مجموعات صغيرة، لكن تأثيرها يمكن أن يكبر.

قالت ليلى:

. مثل موجة صغيرة تتحول إلى تيار كبير؟

ابتسم فؤاد:

. بالضبط. كل تغيير يحتاج للوصول إلى "الكتلة الحرجة". وحسب حالة المجتمع، قد تكون بين 10 و20٪ من الناس. حينها يبدأ التغيير بالتحرك من تلقاء نفسه.

ساد صمت قصير، لكن هذه المرة كان الصمت مليئًا بالأمل.

قال سامر وهو ينظر إلى الوجوه من حوله:

. إذن نشتغل على الأفراد، المجموعات الصغيرة. وعندما تصل الموجة إلى حجمها الازم... لن يستطيع أحد إيقافها.

ابتسمت مريم بثقة:

. ولو استغرق الأمر جيلًا كاملًا... فأنا مستعدة.

هزّ ياسين رأسه موافقًا:

. وأنا كذلك.

استمر العمل لساعات طويلة، وكان يتمحور حول وضع برامج عملية على أرض الواقع في ارض النجوم، لإيصال المعلومات والرسائل إلى الأشخاص الذين يظهرون حالة جديدة من الوعي تقوم على التعاون. يتم تشجيعهم من خلال التدخل في حياتهم اليومية عن بُعد. كان الأمر يتطلب الكثير من التخطيط والبرمجة التي تستطيع اختراق منظومة النجوم. لم يكن ذلك بالأمر السهل، و لكن كان فريق العمل مليئًا بالحماس والإصرار على المضي قدمًا في هذا المشروع.

انتهى الاجتماع. انصرف الأغلبية إلى أشغال اخرى و بقي عدد من المشاركين...

قال فؤاد و هو يتأمل المناظر الجميلة في أرض البذور، الطائرات المسيرة و التناسق الطبيعي من حوله:

-سننقذ سكان أرض النجوم قريبا، ستعم الوفرة و يعم السلام، ونذهب الى الكواكب الأخرى و تصبح الحضارة الإنسانية مشعة في كامل المجرة.

الكتاب

في صباح الغد، قرب شجرة لوز مزهرة في الحديقة، جلست نورا مع هاني لاحتساء مشروب صباحي، يشبه القهوة، طوره علماء التغذية في أرض البذور حتى يحافظ على التجدد السليم للخلايا. كان الأطفال يقومون بصنع روبوتات نباتية، روبوتات تنمو داخل نبتة. كانت النبتة توجّه أوراقها مثل أذرع صغيرة، وتستجيب لحركاتهم.

-ماذا تفعلون؟ قالت نورا.

-أضفنا إلى جينات هذه النبتة رمزًا بسيطًا من شيفرة الضوء فأصبحت تتعلّم من حركة الرياح وتحفظها.

ابتسمت نورا للطفل و قالت، أحسنت.

ثم التفتت لزوجها:

.-أتدري، أحيانًا لا أصدق أننا نعيش هنا حقًا، أننا نتمتع بكل هذا الأمن، كل هذه الوفرة، كل هذه التكنولوجيا، وأننا لا نعد الدقائق لنعود إلى "غرف النوم المعدنية".

هاني :

-ها ها ها أتذكرين؟ كنا نسميها التوابيت الرمادية. تلك الصناديق الصغيرة التي بالكاد تتسع لجسد نائم. أربع ساعات فقط من الراحة، ثم تعود العجلة لتدور، ضجيج لا ينتهي في المعسكرات ولا أحد كان يعرف ماذا ننتج أصلاً.

نورا:

-ياله من كابوس. كم اشفق على الناس العالقين هناك...

هاني :

-ربما علينا أن نكتب كتابا عن أرضنا، عن النجوم، عن الهجرة، عن اخلاقنا و قيمنا، عن الزراعة المستدامة، عن التصميم البيئي المتكامل، السكن العضوي، المنازل البلورية، التكنولوجيا، الخ. نقدم لهم رؤية شاملة لعالمنا، ما رأيك؟

-فكرة رائعة. لكن هل سيصدقون ذلك؟ عالمنا مختلف كليا عن عالمهم.

- سأحاول، سأدون كل تفاصيل حياتنا القديمة في جحيم النجوم، و حياتنا الجديدة هنا، و كل قيمنا و اخلاقنا و ما مررنا به، قصة عرفان،

الهجرة، كل شيء! و سأستعين بذكائنا الاصطناعي، سيكون كتابا فريدا من نوعه.

- كيف ذلك؟

-ستكون قصة مشفرة مليئة بالرموز، حتى يتناقلها الناس فيما بينهم و يحاول كل منهم فهمها بطريقته الخاصة و حسب درجة وعيه. المهم ان يفهموا انهم يستطيعون الخروج من ذلك الجحيم، و ان حياة أخرى ممكنة.

المدينة الفاضلة

جلس عرفان على مقعد خشبي تحت شجرة زيتون في حديقة بيته، بجواره صديق قديم اسمه زيد، و كان في المدرسة يُلقّب بالفيلسوف الصغير.

قال زيد وهو يتأمّل المشهد:

-احيانا لا اصدق كل ما قمنا به، كل ما نعيشه الآن يُشبه تمامًا حلم أفلاطون. المدينة الفاضلة. المدينة التي يُبنى فيها النظام الاجتماعي على الانسجام و التعاون. قد قطعنا شوطا هائلا حقا.

عندما اتذكر حياتنا في أرض النجوم، اكاد لا اصدق اننا استطعنا ان نتحرر من هذا الفكر المبني على القوة و السيطرة و التخويف، و الاقتصاد المبني على تجميع و تكديس المال، كم أتمنى ان يحس سكان أرض النجوم بالنعيم الذي نعيشه الآن. أترى هذا ممكنا؟ اتذكر احيانا أصدقائي الذين مازالوا هناك و احس بالحزن الشديد...

تذكر عرفان ان والده قد يكون مازال عالقا مع هؤلاء، في أرض النجوم. احس بانقباض في قلبه. متى يتحرك؟ يجب ان يذهب للبحث عن والده.

- عرفان، ما رأيك؟ فيم تفكر؟؟

أجاب عرفان:

-اوه لا شيء، و لكن أظن ان التغيير قرار داخلي يا زيد. لا أحد يستطيع ان يقنع احدا بشيء في الحقيقة. هو إحساس داخلي. قرار داخلي يتخذه الإنسان الذي توسع وعيه و صار يطمح للأفضل.

-اتظن ان الناس يختارون جحيمهم؟

-اجل، نوعا ما. ليس اختيارا بالمفهوم التقليدي للاختيار، بل هو قبول داخلي بالوضع الذي يعيشونه.

تكلم الفلاسفة في كل زمان عن ما يسمى المدينة الفاضلة، يعني مجتمعا مبنيا على الانسجام و التكامل. لا يوجد تملّك، بل مشاركة. لا يوجد تنافس، بل تعاون. الخ.

حياة تكاد تكون فطرية، بكل يسر. بلا ضغط و لا تقييمات و لا نجوم و أظن ان هذا المجتمع وجد في كل زمان ومكان، يعني ليس وهما او خرافة. لكنه، ربما، لا يستمر دائما. لا يستطيع أن يستمر الا في ظروف معينة. الافكار و التصرفات البدائية في الإنسان، الخوف، السيطرة، الأنانية، الخ...تبقى موجودة، دفينة في اللاوعي، لدي

الكثيرين، و تعود لتطفو على السطح و تستطيع ان تدمر اي مدينة فاضلة.

-كلام منطقي يا عرفان. كلام منطقي.

يجب ان نحمي جنتنا.

وبينما كانت الشمس تغرب على الساحة، بدأ السكان يتوافدون حول مائدة كبيرة، طويلة، يملأها الاكل اللذيذ، المشروبات بأنواعها، الخبز الطازج، الخضار البيولوجية، الفاكهة و انواع اخرى من الطعام لم تكن معرفة في السابق. كل شيء كان متوفرا للجميع بفضل التقدم التكنولوجي و الروحي في نفس الوقت. و كانت هذه الولائم تقام كل أسبوع لتشجيع التعارف و النقاش الحر بين السكان. و لكن عرفان يغمره احساس ان هناك مشاكل في الأفق، فعدد السكان في تزايد مستمر، و المشاعر و الأفكار البدائية قد تكون مازالت موجودة في قلوب البعض.

الفصل الأخير

بذور الخلل

عودة الأنا

في ساحة السوق العام في أرض البذور، اعتاد الناس أن يأتوا كل صباح ويأخذوا ما يكفيهم، دون مراقبة، دون ميزان، ودون محاسبة.

القانون الوحيد في السوق كان:

"خذ حاجتك، واترك لغيرك."

لكن شيئًا غريبًا بدأ يطفو على السطح. كانت هناك بعض الصعوبات في تأقلم بعض الأطفال مع فلسفة الحياة في أرض البذور، و لكن أغلب الأطفال القادمين من أرض النجوم ينسجمون في الاخر مع الأطفال الآخرين. المشكل الحقيقي الذي بدأ يتفاقم يخص الكهول.

رأت سلمى، إحدى القائمات على تنظيم السوق، أن بعض الوجوه الجديدة القادمة من أرض النجوم، أصبحت تتردد على السوق مرات عديدة في اليوم، تحمل معها أكياسًا ضخمة، وتأخذ كميات تفوق حاجة الفرد أو العائلة، دون أن تشارك أو تزرع أو تساعد في أي عمل جماعي.

أحد هؤلاء، رجل يُدعى لؤي، دخل السوق ذات صباح، وأخذ ما يكفي لإطعام عشر أسر. وعندما سألته سلمى بلطف:

ـ ألا يكفيك ما أخذته بالأمس؟

أجاب بحدة:

ـ أنا حر، أنتم قلتم إن السوق مفتوح للجميع، أليس كذلك؟!

ابتسمت سلمى بحزن ولم ترد. لكنها أدركت أن شيئًا ما ليس على ما يُرام.

في المساء، اجتمع مجلس الحكماء تحت شجرة الزيتون الكبرى، وتحدثت سلمى:

ـ لقد بدأت تظهر أنماط سلوك قديمة... سلوك مبني على الخوف و التنافس.

أضاف حكيم آخر:

ـ من الواضح أن بعض الوافدين لم يتخلصوا من نظام النجوم، هم لا يزالوا يعتقدون أن الحياة صراع، وأن من لا يأخذ بسرعة، لن يحصل على شيء.

هزّ الجميع رؤوسهم بصمت. ثم قالت امرأة مسنّة:

ـ أرض البذور ليست مجرد مكان، إنها عقلية. ومَن لم يغيّر برمجته الداخلية، سيفسد التناغم دون أن يشعر.

بعد نقاش طويل، اقترح أحد الحكماء:

ـ لماذا لا نخلق وسيلة نعرف بها نوايا القادمين؟ لنعرف إن كانوا مستعدين فعلًا للتغيير.

قرر الحكماء أن يبتكروا وسيلة لاكتشاف النوايا الحقيقية. وسيلة لا تعتمد على الكلمات، ولا على المظاهر، بل على قرارات القلب حين يكون العقل نائمًا. وهكذا، ظهرت لأول مرة فكرة "غرفة الاختبار".

غرفة الاختبار

تم بناء منشأة كبيرة بيضاء بالكامل، جدران عالية بلا نوافذ ولا شاشات. مجرد فراغ ناصع، يبعث على الطمأنينة والرهبة في آن واحد.

اعدت هذه المنشاة للوافدين من أرض النجوم لانهم قد يحملون بذور الفساد القديم، فقد اثبتت التجربة انه ليس كل القادمين لديهم نية التعاون أو رغبة في بناء حياة اخرى، بل الكثيرون جاؤوا طمعًا في الراحة، او فقط للهروب من جحيم النجوم.

مجموعة من خيرة المهندسين كانت مسؤولة على تثبيت آخر أجهزة التجربة تحت إشراف عرفان.

كانت العقول الإلكترونية تُبرمج بدقة على إنشاء محاكاة تتجاوز الحواس، رحلةً تجعل الإنسان يحيا أيامًا وسنوات في بضع دقائق، تراه يفرح، يحزن، يخون، يُنقذ، يكذب، يتعاون، دون أن يدري أنه لا يزال نائمًا في سرير ناعم تحت أضواء هادئة.

المهندس المسؤول عن المحاكاة يفسر لعرفان:

-يتم إدخال كل وافد جديد إلى غرفة الاختبار، ويُطلب منه أن ينام. أثناء نومه، تقوم رقاقة حيوية متطورة بزرع محاكاة في عقله، كأنها أحلام. في هذه الأحلام، يجد نفسه يمرّ بمواقف حياتية متكررة، لا يعلم أنها اختبار، ويتصرف فيها بتلقائية.

عرفان يستمع اليه و لكن عقله مشغول بشيء آخر، فهو يستعد للخروج الى الصحراء للبحث عن ابيه.

-هل تسمعني عرفان؟

-نعم نعم، واصل من فضلك.

- حسنا، هنا، في أحد السيناريوهات، يرى الإنسان نفسه يمشي في شارع ويجد طفلًا جائعًا يطلب طعامًا. هل يشاركه طعامه؟

في سيناريو آخر، يعرض عليه شخص مبلّغًا كبيرًا من "النجوم" مقابل شهادة زور. هل يوافق؟

في تجربة ثالثة، يعمل في مجموعة لتنظيف ساحة عامة، لكن لا أحد يراقبه. هل يعمل بإخلاص، أم يتظاهر بالعمل فقط؟

كل قرار يتخذه يتم تحليله عبر خوارزميات دقيقة تقيّم الفعل و أيضًا النية، ومدى الانسجام بين الفكر والسلوك.

بعد بضع ساعات، يستيقظ الشخص من نومه وهو لا يعلم أن كل ما رآه كان جزءًا من اختبار.

-أحسنت. احسنتم جميعا. قال عرفان. غدا نلتقي مع الحكماء لنواصل التحضيرات. ثم انصرف بسرعة.

في الغد، اجتمع الحكماء و المهندسون و معهم عرفان، لمناقشة طريقة قبول الأفراد الجدد في أرض البذور.

-الامر بسيط، قال عرفان، تُعرض النتائج أمام لجنة محايدة من كبار الحكماء، بدون اسم، بدون خلفية. فقط أفعال و نوايا. إذا أظهرت النتائج رغبة حقيقية في التعاون، الصدق، العمل الصالح والحس الجماعي، يُقبل الشخص، ويتم دمجه تدريجيًا في مجتمع أرض البذور.

أما إذا أظهرت النتائج أن الداخل لا يزال يحمل برمجيات النظام القديم، فيُطلب منه المغادرة بعد ان يتم محو ذاكرته بالكامل...لن يتذكر شيئا

من المحاكاة التي عاشها و ظنها حياة حقيقية دامت سنوات ويعود الى أرض النجوم.

قال أحد الحكماء:

-الا نعطيه فرصة اخرى؟

-كلا، قال عرفان، من لم يزرع داخله بذور الحياة الأخرى فهو لا يستحقها، لن يستطيع العيش معنا. و سيفسد تناغم مجتمعنا.

و لكنه يستطيع أن يعيد تجربة المحاكاة لعله يفلح في الاختبار و يكون من الفائزين و يدخل الى أرض البذور.

تم التصويت على هذا القرار، و سيبدأ تشغيل المحاكاة في صباح الغد.

و في نفس الليلة، قرر عرفان ان يخرج في رحلة بحث عن ابيه، قام ببعض التعديلات على محرك طائرته الخاصة و انطلق.

إلى اللقاء في الجزء الثاني

فـــهرس

الفصل الأول مجتمع الأنانية 4

الفصل الثاني الرجال في أرض النجوم 16

الفصل الثالث الطفل المختلف 26

الفصل الرابع برمجة التميز و التألق 41

الفصل الخامس بداية التغيير..... 59

الفصل السادس فن السيطرة 78

الفصل السابع قرارات حاسمة..... 93

الفصل الثامن الشرخ 113

الفصل التاسع الثورة.....128

الفصل العاشر أرض البذور 136

الفصل الحادي عشر نهاية المعسكرات.....161

الفصل الثاني عشر فكر جديد 176

الفصل الثالث عشر جنة تُولد من التراب.....194

الفصل الأخير بذور الخلل 227